رمـاد أحمـــر

رمـــاد أحمـــر

عبيـــر ضـــاهـــر

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: رماد أحمر

اسم الكاتب: عبير ضاهر

تدقيق لغوي: شيرين عابدين

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى – يونيو ٢٠٢٠ م

رقم الإيداع: 2020 / 9938

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85706 – 5 – 6

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهداء

إلى القلوب القادرة على الحب وإن لاقت
من جحود وجروح وخيبات وخذلان

"الحياة غفوة والحب حلم ونحن لا نعيش حقًّا إلا إذا أحببنا"

الفريد دي موسيه

(١)

عثرت عليَّ وهي تفتش عن حقها المسلوب في صك التعاسة فردت علينا منها حظنا المقسوم.

تحدق بي؛ فأهرب بنظري من جانب لأجدها مستقرة هنالك تطل عليَّ من كل الأنحاء؛ أخفي وجهي تسقط من أعلى رأسي على أكتافي، تلتصق بثوبي وترقد فوق مكانها من على صدري ثقيلة لا تتحرك، في تلك المرة وددت أن أزحزحها من أركان حياتي فتعود إليَّ مسرعة تركض نحوي ثانية بذات المشية العرجاء لتبعثر في طريقها الأمنية والحلم.

أخبريني أكان عليَّ التماس الرحيل منك فعدتِ عاتبة وستذهبين، أم قد ساءك سعيي إلى وادي الأفراح وقطع صلتي الطويلة بك!

لو أن التعاسة امرأة لأشفقت عليَّ قلوب النساء فإن رفاقك الشجن والحزن والأسى يمزقون نياط القلوب!

فقد شربت بعد الظمأ وسقى الحب قلبي دونما أي تخطيط! وهل يكون لأحد أن يتنبأ به وبلحظة ويوم المجيء أو الرحيل فوحده من يحدد المواعيد.

يا تعاسة ما جرى! هزمتني، جعلتها حربًا وفيها فازت زوجته عليَّ، أوجعتني بشدة كما أني لن أتركها بلا عقاب! كان أولى بها أن تلقي باللوم

على الحب كما كنت ألوم غيابه عن دربي أعوامًا فأعوامًا فهو من اختار قلبينا يا بائسة!

هي امرأة من رسبت في قبول زيارة الحب قلب من ودت لو أحبها فتتبعتني وعلى عش الأمن أفرغت لجة الحقد والغضب حتى إنها لم تستثنِ منا أحدًا!

غيرتها المحمومة طالت وحيدي!

وتزيح أحلام بكل كفها خصلة الشعر المنكفئة على جانب وجهها وتبعدها بضيق مردفة في حزم: عليه أن ينتقم لي منها وإلا انتقمت منه قبلها ومن ثَمَّ تجهش بالبكاء ويختنق صوتها الذي صار أقرب إلى النحيب وهي تقول متوعدة عاتبة: انتقم لي من زوجتك يا جمال وإلا انتقمت منك قبلها!

تميل برأسها وهي تنتحب والدموع تفر بين أهدابها المبللة متلعثمة تقول: كيف أنتقم منه!

ما بقي لي بعد كل ما جرى إلا أن أنزع قلبي من صدري وأخرجه منه وأفارق الحياة!

تزفر بحرقة وبنبرة صوت واهنة: لو كان بمقدورنا أن نعرف وتوجهنا بالسؤال إلى أقدارنا عن شعورها وهي تلازمنا وترى حالنا بماذا كانت ستخبرنا؟

في بضع لحظات سريعة وخاطفة لملمت الأهازيج ورحلت، بدت كآخر شعاع ضوء قبيل هجوم كل الظلام، هي الفرحة دومًا في عجلة من أمرها! فقبل أن تذهب كانت معي تضحك في عيني وتركض إلى قلبي، ربما تجلس هي الآن بين اثنين غيرنا، كما كانت بيني أنا وجمال!

وتتسابق الدموع على خديها وبشفاه مرتعشة تقع الكلمات منقوصة مبللة ومتلعثمة هل تحس بما أشعر، كيف ترى ما حل بي بسبب...

تتنهد بعمق وتلمع عينها، وتنفض أهدابها ما بقي على أطرافها من دموع؛ لم أخترك يا جمال ولربما لو كنت اخترتك لم يكن ليقوى كائن ما كان على إلحاق سوء بي، وإني لأعفي نفسي على الدوام من مسببات الشقاء والأسى.

تطل من عينها نظرة وهَّاجة وتتمدد ابتسامة على شفتيها بلا مقدمات وتستند في جلستها تهز رأسها مغمورة بمدد الحنين...

أتذكر يوم التحول الكبير أوشك أبي أن يصفعني على وجهي للمرة الأولى من فرط الغضب الذي تملكه حين سمع بما أخبرته به وأقدمت عليه فهب واقفًا وألقى بالجريدة من بين يديه على الأرض وأطفأ سيجارته يتأملني في ذهول غير مصدق لما قلت وظل يعنفني صائحًا متوعدًا يتخلل نبرات صوته مزيج من الاستهجان والسخط وهو يقول ساخرًا هل من أحد لديه ذرة من عقل أن يترك الدراسة بالطب ليعمل ترجمانًا للهلس والكلام

الفارغ! فضلًا عن روايات العشق والغرام والآهات والدموع المستقرة أبدًا على سطح مكتبي وكثيرًا ما رآني أقرؤها خاصة في الإجازات مراقبًا لا يعقب، وبنبرة آمرة لن تتركي الطب؛ ستكونين بعد خمس سنوات طبيبة ولن أسمح بغير ذلك، ثم صاح مستنطقًا إياي: مفهوم؟ فلما لم أنبس ببنت شفة غير صمت متفهمة موقفه، ظللت واقفة في مكاني منكسة الرأس ثابتة في مكاني كمسمار دق بميل مما حدا بأبي على ما يبدو إلى مواصلة الدق حتى النهاية! وكب لجَّة غضبه على مسامعي فلم أنجح مطلقًا في تهدئته، كما أخفقت في إقناعه أن الأدب هو ذاكرة الأمم وناقل ثقافاتها في حياد وبكل موضوعية وأنه يختزل ويسطر حيوات الأمم ويدون أفكار البشر، وتوجهاتهم، وتطلعاتهم، وإخفاقاتهم وأفراحهم وأوجاعهم وأحلامهم ومخاوفهم بعضهم من بعض، هو صدى حياة ساكني أرجاء المعمورة وصوتها الناطق فكيف نعرف من حولنا بدون أدب فهو الاطلاع على تجارب حياة الآخرين الحياة بصوت واحد ناقصة الآداب هي باقي رموز المعزوفة الإنسانية فمعرفة الآداب الأخرى هي تواصل الإنسان وتعارفه بغيره، إذ كيف نعيش بمعزل عن من يسكن معنا الأرض ذاتها وتحت ذات السماء! تأملني بغيظ متجاهلًا يدي الممدودة إليه بالجريدة التي انحنيت ورفعتها بيدي على الفور فظل يحملق في وجهي مستهدفًا عيني بنظرات غاضبة ولائمة وعلى الفور هدأته أمي فهي دائمًا ما كانت تنجح في ذلك فلديها القدرة أن تقوم بعملية إحلال وتبديل في الأمزجة المضطربة في

الأوقات العصيبة لكل من يقصدها شاكيًا أو لاجئًا إليها، بعدها بوقت قصير طرقت باب غرفتي حيث كنت أقف مكاني لا أتحرك ولا أدري أأظل واقفة مكاني أو أفضل المشي، كلما صار خاطري مشغولًا مثقلًا بالحيرة أو الفكر والتوتر، فوضعت كفها الحنون على كتفي وجلسنا متقابلتين على سريري، وبصرها يجول الغرفة من حولنا حتى استقرت أعلى مكتبي حيث الكتب الموضوعة على سطحه وابتلعت ريقها بصعوبة ولم تتكلم تستجدي حركة لكفها الذي حطت به على مقدمة فخذي من بعد ركبتي ولكنه قد ثبت مكانه وكأنه التصق في تلك اللحظة وددت لو بمقدوري أن أجهش بالبكاء وأن أذرف الدموع لأزيح أسى لاح لمرآة قلبي فقد شعرت بما تحس به وبكل ما يموج في صدرها وبقينا لأكثر من الساعتين نتحدث وهي تحاول أن توجد حلًّا وسطًا معي لرؤيتها إصراري على قراري وصمتي التام في أثناء حديثها؛ فبادرت باقتراح أظن أن أبي من طرحه لتبلغه لي وهو أن أستمر في دراسة الطب وفي فترات الإجازة أقرأ ما أريد من روايات العشق وقصائد الشعر، وأنها ستعطيني ما أحتاج من مال لأشتري كل الروايات لقراءتها فقط وأن أتراجع نهائيًّا عن ترك الدراسة في كلية الطب.

حزَّ في نفسي أني لم أملك من حل يرضي أمي لحظتها شعرت بدموع تملأ عينيها الوديعتين وجمعتنا معًا لحظات من صمت قبل أن تعاود تذكرتي بيوم ظهور نتيجة الثانوية العامة متحدثة عن حجم فرحتها يومها وكم كان ضيق بعض زميلاتي وقريباتي اللائي لم تحصل أغلبهن على مجموعي الذي

أهلني للالتحاق بكلية الطب وبدوري تذكرت كيف كان أبي سعيدًا ومزهوًّا أن ابنته الكبرى في غضون سنوات ستصير طبيبة!

لو بإمكاني ما كنت اقتربت من ذكرى تلك الفرحة لدى أبي وأمي وبعد مرور عامين فقط وتبقى للنهاية ولكن هذا ما حدث لقد وقعت في هوى الآداب وتمكنت بسطوة سحرها وألقها وجاذبية مباهجها من وجداني أنها أقرب لطلاسم السحر التي ألقيت على وعيي!

كما وأني ما إن أحب شيئًا أجيده وأبدع فيه حتى أستقر في ذهني بعد مرحلة الشغف أن أتوجه للدراسة واخترتني الترجمة كما اخترتها فقد كان الطريق إليها شيقًا ومثيرًا فقد بت أحلم باليوم الذي تكون فيه الكنوز الثمينة على مقربة مني ويكون لي من الحرية في اقتناء ما أرغب منها ويتسنى لي القيام بترجمتها، وكنت أظن أني سأقوم بترجمة كل الآداب وأن كل ما يروق لي سأقوم بترجمته إلى العربية ولكن الواقع كان مختلفًا إذ إنه وعندما صارت الترجمة هي عملي اقتصرت على الفرنسية فقط فتحتم عليَّ ترجمة الآداب ومختلف الإصدارات من الفرنسية إلى العربية وبالتبادل من لغتنا العربية إلى الفرنسية وكانت فرصة العمل في المركز الثقافي الفرنسي بفرعه لدينا بالإسكندرية فرصة ذهبية غبطني زملائي عليها فقلت ولم لا، فلتكن البداية مع ثقافة بلاد السحر والنار والنور والباقية آتية وصرت أكثر إقبالًا عن ذي قبل بالثقافة الفرنسية فالأمر لم يعد من قبيل الاطلاع والشغف

ولكنه أصبح من ركائز العمل بالمركز فكثفت قراءاتي في الثقافة الفرنسية عن آدابها وتاريخها والقيم السائدة والأعراف المتوارثة.

قد أسرني بلد الحب والرومانسية الذي تُقدس فيه المشاعر قبلة العصرية والرقي والذوق الرفيع، وعلى عراقته وصنوف الإبداع به تبرهن ما تحمله أروقة المتاحف وطراز القصور الأثرية وواجهات الميادين والشوارع العتيقة وشموخ القلاع القديمة فالكلاسيكية والرومانتيكية ومن البدء إلى أوجها كانت مع باقي المذاهب والحركات الفكرية والفلسفية فرنسية محضة، ومنها قد انتقلت تدريجيًّا إلى باقي بلدان العالم التي أشرقت على فرنسا قبل غيرها بضيائها على الفنون والآداب بمختلف ألوانها وطرائقها شعرًا، ورسمًا، وموسيقا، وأدبًا، ونحتًا، وإلى حاضرها ما زالت تصدر الجمال وتوجه الذوق من بيوت الموضة لديها في الأزياء ورسم خطوطها كشانيل وهيرميس وفويتون وديور، فهم أكثر الشعوب حرصًا واهتمامًا بالهندام المميز والمظهر الحسن في ارتداء الملابس المتطورة والعصرية ففضلت النساء قديمًا وبعضهن للآن الفستاتين والتنورات التي كانت تتزين بالنقوش والزهور وأوراق الشجر والفراشات كما ارتدى الرجال المعاطف الطويلة من أقمشة صوفية أو مختلطة من الصوف والقطن والحُلل والأوشحة ورابطات العنق الأنيقة الملون منها وذات اللون المتداخل أو الموحد كلمسة تضفي على الهندام مزيدًا من الشياكة والجمال ولأنه لا أناقة بلا عطر فاكتمل الرقي وبلغ الذروة وتفوقت فرنسا في تقديم أفضل العطور وأنقاها مصفوفة على أرف أهم

المتاجر لبيع العطور عالميًّا واستحداثها، ولم تدر ظهرها للطعام فقدمت أشهى المأكولات بمطاعمها الشهيرة بفروعها على أرضها وحول العالم، إنها بالفعل بلاد مثقلة بالجمال والسحر كأنها في حال مصر بمنتصف إحدى مراحل أوج المجد بها، ومع أن فرنسا بكل هذا إلا أنها لم تفصح عن أسرارها وتهدي مآثرها لأيٍّ من الخمس وعشرين بلدًا في إفريقيا المتحدثين بالفرنسية باعتبارها لغة أولى؛ ففرنسا ظلت هي فرنسا في حين بقي غيرها من البلدان الإفريقية سيئة الحظ رغم كل ما تمتلك من الثروات المتنوعة تعاني الفقر والمرض والفتن، وتتسول من فرنسا وبعض دول أوربا ممن كان لهم السبق في الحط على أراضيها في نوبات من الحظ السيئ، حتى أنه عندما حملت أطماع الإمبراطورية الفرنسية في خريف عهدها أن تستهدف مصر لم يظهر للمخلصين منا من فرنسا أوجه المستعمر المعتدي، فلم نحب فرنسا وقاومناها وأخرجناها من أراضينا بعد خسارة، حسب عدد من المؤرخين ثلاثمئة ألف مصري سالت دماؤهم في المواجهات مع الفرنسيين وبعضهم بلا مواجهة سقطوا تحت نيران المدافع التي كانت تستهدف المدن والأحياء ويتردد دويها في سماء الإسكندرية إلى القاهرة إلى الصعيد ومع كل توغل من القوات الفرنسية في الأراضي المصرية كان الأهالي يتصدون لها فيعود إلى المصريين وفرق وجماعات المقاومة الشعبية الفضل في هزيمة القوات الفرنسية التي زحفت من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وكان من لا يتوافر لديه سلاح من الرجال كانوا يتصدون له بالعصي والحجارة وفي المواجهة

التي وقعت عند فرع النيل من الجهة الغربية قامت بنات ونساء رشيد باستخدام كل ما في متناول أيديهن للحد الذي دفعهن إلى استخدام أواني الطبخ النحاسية في التصدي والدفاع عن أنفسهن فيهوين بالغطاء تارة وبالإناء تارة أخرى لا أتخيل كم الألم الذي يشعر به الجندي المسكين وفروة رأسه يشجها غطاء ثقيل مصنوع من النحاس! وفضلت فرنسا أن تنهي المهزلة بعدما انتشرت الأنباء عن هزيمة قواتها أمام المصريين، وغادرت بالرغم من أن بقاءها لم يطل إلا أنها مالت وبالغت في استخدام العنف في مواجهة المصريين لإخضاعهم إذ طمست جرائم فرنسا في بلادنا على الوجه الآخر للحضارة الفتية.

هناك الفرنسيون أنفسهم يميلون إلى التطرف في الزهو ببلدهم فلِم يتوقعون من الشعوب

الأخرى الإذعان والرضوخ أو الترحيب بالجيش الفرنسي في مقابل أن ينقلوا إلينا أسرار المدنية ومعالم الحضارة كيف تفكر حقًّا تلك القوى والدول الكبرى في كل زمان!

ولولا التسامح الثقافي بين الشعوب والحضارات لتعطلت روافد الإنسانية وتمزقت الروابط وانتشرت الأحقاد ونشبت الصراعات فلولا هذا التسامح لم نكن لنرى أن يمتدح ويتطلع غير الفرنسيين لثقافتهم متناسين ما كان منها تجاه عدد ليس بالقليل من البلدان وبدوري حريصة على زيارة فرنسا والسير بطول شارع الشانزليزيه والتيه في أروقة كتدرائياتها العتيقة

ومتاحفها وصعود إيفل واحتساء القهوة الفرنسية وأنا أشتم عطرًا باريسيًّا فريدًا وأغيب في نشوة السحر في أجوائها دون أن أرتدي مشد الأرستقراطيات الحريري السميك والمدعوم بألواح من الخشب أو الحديد من فك الحوت حيث تنظم لأجله رحلات بحرية لجلبه، وكلما تمر السنين يصير ضيقًا أكثر فأكثر بحجة أنه يشد الصدر ويسطح البطن ويحافظ على ظهر مستقيم في إشارة مجازية إلى استقامة أخلاق وسلوك من ترتديه كيف تم الربط بينه وبين الاستقامة فقد كان يضغط على الرئتين والأمعاء وقد كانت تحدث حالات إعياء وإغماء كثيرة ومع ذلك ظل موجودًا لقرنين كاملين حتى بين الطبقات الشعبية ولم تسلم منه الحوامل والأطفال بحجة أنه يعمل على نموهم على نحو صحيح! فيما حرصت الطبقات الأعلى عليه ضيقًا مطرزًا ليعطي شكلًا مثيرًا للصدر أقرب إلى أن يكون بالفعل فاضحًا حتى أن بعض الرجال لجؤوا إليه أيضًا للتمكن من غلق أزرار الصدريات الداخلية في شكل من أشكال العقاب الجماعي وفعلتها الموضة تدريجيًّا عندما تبدلت وتغيرت واختفى وكان أول رفض لارتدائه واستمر لفترة كبيرة، ومع الثورات التي غالبًا ما تحدث التغيرات الكبيرة توقفت الفرنسيات عن ارتدائه لأنه يمثل حقبة مرتبطة بالنظام السابق قبيل الثورة الفرنسية وبمقدوري أن أشارك مع الفرنسيين احتفالهم بيوم الباستيل بمنتصف شهور الصيف تخليدًا ليوم اقتحام الثوار لسجن الباستيل ومن قمة اندلعت الثورة كما يروق لي في تلك الزيارة المزمعة بأن أفوز بحضور

حفلة تنكرية بالأقنعة في طقس متبع في بعض الحفلات هناك ولحظة تحقيق تلك الأمنية متوقفة على موافقة الآخرين!

في أول إجازة لي بالسنة الأولى من تحولي لدراسة الأدب كنت أقضي أوقاتي في القراءة كعادتي ولكن هذه المرة كان عدد الكتب أكبر بعض الشيء كنت أتنزه بينها داخل غرفتي؛ فقراءة كتاب هادف ماتع هو نزهة حقيقية، وكنت أخرج قليلًا في زيارات عائلية محدودة ليس من أجل توفير الأوقات للقراءة ولكن ربما هي طبيعة فأمي لا تحب الخروج كثيرًا إلا في المناسبات العائلية وفي أضيق حدود وهذا كان يروق لأبي ولا أعلم لذلك سببًا غير أني كنت ألحظ أني لا أخرج كثيرًا وأفضل أن أبقى مع كتبي والفارق أن هذا هو اختياري لربما لو منعني أبي من التنزه والزيارات العائلية قد أثور أو أعترض وأشعر بالضيق!

ومع بدء الدراسة كان يتملكني الحماس والنشاط في حضور المحاضرات وقصد المكتبة الخاصة بالكلية يومًا بعد يوم لأستعير كتابًا وأجري حديثًا مطولًا مع أمناء المكتبة من أمتع الأحاديث كنت أعتبره طقسًا متعلقًا بصلب الدراسة أيضًا بعد انتهاء اليوم الدراسي أعود مباشرة إلى البيت في نظام دقيق ومحكم فقد كنت أحاول أن أثبت شيئًا يستقر في خاطري! ولكن أبي لم يقتنع بعد ولم يرضَ فقد كان يرمقني بضيق ونفاد صبر كلما لمحني أدلف إلى البيت وبجعبتي عدد من الكتب التي كان يلمح

عناوينها وأسماء مؤلفيها الأجانب فكان يسخر ويحنق عليَّ، وتقول عيناه ألم يكن من الأولى أن تكون تلك كتبًا ومراجع طبية تتعلق بدراسة الطب!

وفي الحقيقة كنت مشفقة على أبي من خيبة أمله فيَّ ولكن ما عساني فاعلة! لا شيء سوى التوجه إلى ما أحب أن أكونه وأعمله؛ ثم قد التحقت بكلية الآداب قسم الترجمة وكم كانت سعادتي وأنا أتلقى المواد المقررة وأعيد مراجعة قدراتي في اللغة كنت أعتبر نفسي محظوظة بكوني محبة للأدب ولدي القدرة على فهمه وحب مطالعته حيث يتيح لنا الغوص بالعيون في أعماق النفوس وكشف أحاديث العقول، هذا يكتب عن الحب وهذا عن شجونه وتطلعاته وآماله وأفراحه وممالك وقلاع في الخيال يتيح لك الأدب أن تبحر فيها وتطير على بسط الخيال تهبط وتعلو وتغوص في أغوار النفس وتحلق في السماء كأنك في حديقة تتساقط الثمار عليك وأنت تتنزه في أرجائها كم أسعدتني دراسة الأدب والتفرغ له، وكنت أقف أمام الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية أمسح أغلفتها بفضول وإن لم أعرف محتواها؛ فقد كانت الحروف الفرنسية تتلاعب بنفسي وتداعب مخي وتنمي فكري حتى أتقنت الفرنسية ودلفت إلى مغارة الكنوز في المكتبة كم كانت فرحتي! كدت أطير وأنا أحبو وسط أروقة المكتبة وعلى الأرف مجلدات تضم أخيلة مكتوبة وآهات مطبوعة وحروفًا مغرية أحمل أسلحتي وذخيرتي والمؤن وأتحصن بالمكتبة، كنت أحمل قواميس اللغة والعبارات وأتوجه إلى هناك كأني في نزهة أخشى أن يفسدها عليَّ أحدهم فكنت أنفرد بنفسي وكتاب أختاره وأنا

حائرة بما أبدأ وتغلبت على عاداتي السيئة بصعوبة إذ كنت أحب وأحتار بين عدة كتب أود لو قرأتها جميعًا في وقت واحد ورأيت حلًّا لحالة التشتت هذه بأن أعيش بين كتابين فقط أتنقل بينهما ما إن آخذ هدنة هنا أعاود وأهرول إلى الآخر وهو إحدى المتع العظيمة التي أتمتع بها وأعايشها؛ فمن اللحظات الفريدة التي أعايشها وأقتنصها هي نسيان نفسي في تفاصيل إحدى الروايات التي أقرؤها يوم خطبتي؛ كنت ليلتها حائرة بين أن أنهي رواية كنت عاكفة على ترجمتها وكانت مشوقة غامضة! وللحق شعرت أني أخون بطلة روايتي إذ كانت على وشك إلقاء النظرة الأخيرة قبيل مراسم دفن حبيبها وأنا بصدد عمل حفل خطبتي، كنت مشفقة عليها فاستحسنتُ أن أجالسها وأمضي معها إلى الأحداث وأسابق السطور لأصل بها إلى حل قد قام الكاتب بطرحه في الأحداث المتقدمة، ويومها فوجئت أن أمي تحملق في وجهي بذهول ودهشة ومتعاطفة معي لأول مرة وأنا بهذه الحالة والوضعية إذ كنت أبكي وأنا أترجم ذلك الفصل الذي قضى فيه حبيبها كم أشفقت عليها وعلى أمي التي اتضح لي ظنها في أنني أكتب رسالة لأحدهم تنبهت لها فوجدتها تتأملني بأسى وخوف فطويت صفحات الرواية لأوقف دموع البطلة مؤقتًا ونهضت منزعجة وقلقة على أمي فقمت من مكاني مبتعدة عن مكتبي متوجهة إليها مباشرة وعانقتها وأنا قلقة عليها وسألتها ما بك يا أمي! فربتت على كتفي قائلة:

- العريس، هل سترفضين العريس يا أحلام؟

ولم تعطني فرصة لأبلغها ردي ولكن ساءني أن تكون بتلك الحالة لأجلي فابتسمت وأنا أحتضنها.

- موافقة يا أمي، فعلاء شاب مهذب ومثقف وأنيق ومهندم في هيئته ومظهره كما أنه رياضي.

قاطعتها أمها وهي تكاد لا تصدق أنها قد قبلت الخطبة ومالت أحلام على كتف أمها بدلال قائلة:

- ووسيم وبن أعز أصدقاء أبي أيضا!

فعانقتها أمها وخرجت من الغرفة على الفور وهي تهلل قاصدة على ما يبدو والد أحلام لتخبره.

وبالفعل لقد تناهى إلى سمع أحلام وهي متوقفة في وسط الغرفة لا تدري ماذا تفعل والابتسامة تضيء وجهها، وصوت أبيها متحدثًا إلى صديقه في الهاتف يتخلل كلامه القهقهة والفرحة تغمر نبرات صوته ليبلغه بموافقة أحلام.

ابتهجت أحلام لتلك الفرحة التي غمرت قلب أبيها بموافقتها الزواجَ من ابن صديقه التي من شأنها توطيد صداقتهما الطويلة حين تكلل بالمصاهرة، وظلت واقفة في مكانها غير مصدقة تسمع صوت ضحكات أبيها وهي تهمهم:

- لقد اشتقت لتلك الضحكة يا أبي!

تظل أحلام واقفة بمكانها قبالة مصدر الصوت غير مصدقة أنها سبب كل تلك الفرحة التي غمرت أباها ويعبر بريق دمعة عينيها فتضم شفتيها معًا وتهز رأسها برضى -لك ضحكة عذبة صافية تشعرني بالأمان بأن كل شيء من حولي رابض في مكانه ثابت لا يتزحزح- ثم تزوجت علاء وأنجبت بعد تسعة أشهر ونصف من الزواج ابني كريم.

وهذه الضحكة وبفرحة أكبر غمرت قلبًا في اليوم السابع لمولد كريم، حين حمل أبي كريم بين يديه بحرص غير مصدق أنه يحمل حفيده الأول وظل هو وعمي عبد الرحمن يمزحان ويضحكان متندرين بصغر حجم كريم وكيف أن تلك كانت بداية الاثنين ويقهقهان ثم تليا عليه شرطهما الوحيد بأن يصير هو الآخر مثلهما مهندسًا وضحكنا جميعًا متمنين أن يفي كريم بهذا الشرط.

لم يكن عمر السعادة قصيرًا بيننا فثمة آخر هو من كان أقصر مما أتوقع أو أتخيل؛ أنا وعلاء كنا زوجين أقرب إلى زوجين تقليديين مثاليين كيف لا أدري ولكننا كنا سعداء رغم أننا لم نتزوج عن حب حتى أني تشككت في أن ثمة ما يرمي إلى أن الحب هو المصدر الوحيد للسعادة! كان بيننا انسجام وود كبيرين فكل منا يحرص على إرضاء الآخر ومحاولة التقرب منه وفهمه هي علاقة ذات خصوصية من تلقاء نفسها دونما ترتيب، جهودنا جاءت وكأنه اتفاق ضمني على أن نكون سعداء معًا ومع الأيام نما بيننا شيء جعل حياتنا دافئة تسبقها أمواج من الاشتياق وحرارة اللقاء كان عمله يأخذه

مني كثيرًا وما إن يعود بعد غياب نلتقي كعطشى بعرض صحراء عمله كان يستغرق منه الكثير من الجهد والوقت كنت أشفق عليه، وكنت أحب عملي وأخلص في أدائه ولكن ليس مثلما يبدو على علاء فقد كان يتفانى في عمله يريد أن يترقى ويتأهل ليتم الموافقة على نقله إلى فرع الشركة هنا ليكون قريبًا من أهله ومني، كان يحمل كريم بين يديه وعاطفته تغمره وأرى في عينيه عاطفة لا حدود لها، علاقتنا كانت تقوى مع الأيام حتى أن إحساسي وشعوري تجاه كريم صاحبه وهج ما، علاقتنا اكتسبت أبعادًا تشبه اللون الأكثر دفئًا وامتلاء وتداخلًا من بين الألوان المنفردة بلونها الأول!

في صباح أحد أيام عطلتي الأسبوعية كنت نائمة فاستيقظت على جرس الباب وطرقات مترددة نهضت بسرعة واضعة وشاحًا عليَّ وهرولت باتجاه الباب مباشرة وكان الوقت مبكرًا، وجدت أبي يحتضني بسرعة خاطفة وهو يحاول التماسك فقد كان متوتر دامع العينين وطلب أن آتي معه سألته ولما لم يجب سألته مجددًا وتوجست حدوث أمر فسألته مجددًا ماذا جرى؟ فلم يجبني وظل صامتًا شعرت أن أمرًا وقع لأمي حيث كانت أمي تعاني من ارتفاع مفاجئ من حين لآخر في معدل سكر الدم إثر حزنها الشديد على وفاة أخي الأكبر خشيت أن أسأل أبي لا أريد أن أسمعها لا أتخيل أن أمي تموت أمي هي قلبي وأنا أريد أن أبقى وأعيش للعقد الثامن وكان كريم وقتها ابن خمس سنوات لم يكملها بعد سيتمها آخر العام حملته رغم أنه كبير كنت بحاجة لأضم أي أحد وأي شيء كنت خائفة أن يخرج قلبي من مكاني

أو أن تلتوي أضلعي من فرط الخوف والقلق ونزلت مع أبي أحمل ابني كنت أتجنب النظر إلى أبي الذي كان يؤلمه دمعة متحجرة في عيني تحيطها الحيرة وسؤال ممزق بداخلي واستجمعت نفسي وسألته ونحن بالسيارة ماذا جرى ماذا حدث يا أبي هل... وانفجرت باكية وصدري يعلو ويهبط من شدة البكاء حتى أن كريم أخذ يبكي وهو يتأملني فبكى أبي ونظر أمامه وهو يغالب دموعه والسيارات تمر بجوارنا مسرعة والجو غلبه حر شديد وخانق كأنه الأكسجين قد هرب...

استيقظت قبيل العشاء لأجد نفسي على سرير علاء في بيت والده ومن حولي أمي تبكي وتنتحب وهي تمسك بيدي ولمحت إحدى أخوات علاء بوجه شاحب وعيون حزينة تنظر إليَّ بأسى وقلب مفطور ففتحت عيني واستعدت وعيي لأطلق صرخة مدوية من جديد أجهشت أمي باكية وأخت علاء الكبرى وتناهى إلى سمعي صوت نحيب من خارج الغرفة ودخل أبي يواسيني وهو يحمل كريم شعرت أن قلبي يؤلمني بشدة وكأن الأثقال فوقه ظللت فترة كبيرة أستشعر جسدي كالريشة وقلبي صخرة على جسدي كنت أجد صعوبة في كل شيء حتى السير على الأرض لم أكن أشعر بشيء وكأني تحولت فجأة إلى آلة!

لم أتصور أن يرحل علاء بتلك السرعة ويقتحم الحزن قلبي وعرفت من حينها أن للحزن أنواعًا وفي القلب مواطن، فحزني على علاء يختلف عنه على أبي ربما وجه الاختلاف في الناحية التي يحتلها الحزن كان أبي

بأعلى القلب وكان علاء في المنتصف إلى العمق وخبرت أنواعه بوصولي الثانية والثلاثين وقتها مع ثلاثة أنواع من الحزن.

فثمة آخر كان يهب ساخنًا وثقيلًا يختلف عن بقية الأنواع كان في تلك المرة هو حزني على نفسي، فقد صرت في تلك المرحلة المبكرة من عمري أرملة! وأرملة كلمة ليست بالهينة أو العصية في الوضوح في قاموس اللغة معلومة المعنى والدلالة، أما في سجل مفردات الحياة فهو لقب من فقد شريك حياته من رجل أو امرأة، من شطر نصفه يا لهذا اللقب، مسمى بائس يتناسب لوصف حالة بؤس.

كنت ساخطة في البداية إلى أن اعتدت الأمر والظرف ومضيت وفي حضن كريم وصار هذا الكيان الصغير البريء هو مركز الكون في حياتي فعمدت إلى الحفاظ على أجواء مستقرة غير قابلة للتبدل أو المجازفة من شأنها أن تهدد مستقبلنا معًا ووضعي فظللت أحتال على احتياجاتي جميعها فقد كنت أواجهها بالتشويش عليها تارة وبالاستعلاء تارة أخرى.

ومضت سنة بعد أخرى وكريم يكبر وأنا أقوم بترجمة المزيد من الروايات والكتب لا أبالغ بقولي إن ترجمة الآداب أنقذتني من الوحدة وبددت الحزن وانتشلتني من نفسي ومن هواجسي كنت أعيش وأتنقل بين صفحات الروايات أعانق شخوصها وأمد لهم يد المساعدة أستوضح صفاتهم وملامح شخصياتهم وطبيعة أحلامهم وآمالهم وأسباب شجونهم وأنا أقوم بترجمتها كنت أدخل معهم في حالة تواصل فكري ووجداني كانت

حياتي ثرية وغنية فأنا أقوم بتقسيم وقتي بين ابني وعملي والتردد على بيتين لا ثالث لهما بيت أبي لزيارة أمي والآخر أهل علاء، قطعت شوطًا كبيرًا من الوقت لأتقبل أن علاء ليس موجودًا ولن يكون، ولكني أعمد إلى شعور ما يريحني بشدة ويرخي السكينة بداخلي والسلام بكل أركاني وهو أنه في مكان ما قد يجيء أو لن يجيء ولكنه في مكان ما بكامل هيئته وعلى ذات صورته حتى بابتسامته ونظرات عينيه ولم أزره قط في قبره ولم أقر في داخلي بهذا والجميع يعرفون بهذا عني فلا أحد يتحدث معي بهذا الخصوص! ولا أدري هل هذا التصور هو ما جعلني لا أنتبه إلا قليلًا إلى أن علاء لن يعود قط وأني بلا رجل بالفعل! وكان يحز في نفسي أني ترملت بعد ست سنوات فقط، لأظل هكذا ثماني أخر! يبدو أني قد هيأت نفسي دونما قصد مني في أن أعيش أنا وكريم فقط، ودت بشدة وألحت علي أمي أن أتزوج ثانية ولكني كنت أرفض لم يرق لي أي ممن ألمح لي بالزواج ولا في من قد تقدموا بالفعل، لتمضي حياتي هكذا وأنا ما زالت أشوش وأستعلي على ذلك الخاطر فقد صرت أستشعر في أغلب الأحيان أنه لا ينقصني شيء ولا من شيء أريده، كريم هو أسرتي وأنا له كل الدنيا حوله أدور وله أعيش لتمضي أيام حياتي في البداية ثقيلة آخذة في أن أتكيف على صغر عدد أسرتي الذي لن يكبر لم أحزم أمري على أن أعيش لآخر عمري.

أما لكريم وحده فتتملكني رغبة ملحة في أن أنجب مجددًا وأحمل طفلًا في أحشائي ولمرة واحدة وأجد في بطني طفلًا يركلني يمينًا ويسارًا وأنا أتعجل يوم الوضع لأرى ذلك الذي أرهق أمه شهورًا وعانت المشقة والتعب بحب وعلى لهفة في حمله! وأستعيد معه ثمة أمور ومسائل معطلة نعم معطلة ومتوقفة تمامًا وهذا محبط بالنسبة إليَّ يستقر هذا الشعور بداخلي وإن كنت لا أسمح بأن يستمر لأكثر من دقائق بيني وبين نفسي أشوش عليه فأنا أجيد هذا الأمر! كما كنت أشتاق للمسة يد وعناق طويل بعد عناء يوم من العمل وكم من المرات انكمشت على نفسي في ليال كثيرة طالت عن غيرها وأنا أتلمس وأهفو لتلك اليد ترخي الدفء على أغصاني وتهدئ لوعة تطل بين الحين والحين وكما عودت نفسي أصادرها بالتغافل والاستعلاء وكثيرًا ما أواجهها بالترفع حتى عن مناقشتها لا لأظل الأم المضحية التي اختارت أن تعيش لابنها فقط هذا اختياري ولكن تختبئ رغبة أخرى بداخلي من حولنا تعيش نساء مضحيات لأجل أبنائهن في غياب الأب بالرحيل أو في وجوده وذلك في حالة إن كان لا يقوم بدوره فتتولى الأم القيام بالدورين معًا فهي مضحية أيضًا فقد حملت عبأين معًا المسؤولية الكاملة عنهم والحرمان من أن يكون لها رجل حقيقي.

وهناك المضحيات بقوة الضغوط المحيطة والممارسة عليهن التي حولت الكثيرات إلى مضحيات رغمًا عنهن وإن توفرت لهن حرية الاختيار فنصفهن ربما لن يقبلن بهذا الدور، ومن بين من اخترن أن يكون الأم والمرأة المضحية

عن قناعة ورضى تام تدرك جيدًا أن أي بادرة لندم قد تظهر فإنها تعرضها لخسران المكانة الرفيعة والنظرة المبجلة فعليها ألا تفصح عنها مطلقًا إلا إذا كان لديها صديقة أقرب لبئر عميق وإلا في حال معرفة هذا في محيطها فستقابل بالاستنكار والشجب وتلاحقها نظرات المصدومين فيها وربما تدان وتلوك الألسن سيرتها كأن يقال تلك حنت للرجال وترغب في الزواج من جديد! وهنا تبدأ الأخريات بأخذ الحيطة والحذر منها خوفًا على أزواجهن ففي الجوار خطر يهددهم بالخطف مباشرة أو بالإغواء للإيقاع بهم في الفخ! إن في الحي أرملة راغبة في الحلال!

أما من يتأكد من أنها هدمت حصون الشباب وتوارت خلف المسؤوليات تكدح وتذبل وتطل علامات البؤس والأسى بقسماتها فتلك هي صفات الصديقة الصدوق لا قلق منها ولا داعي للحذر.

أما وأنه فقد ندمت بالفعل بعض النساء على القيام بدور الأم المضحية ولكنهن فطنات خبيرات بأوساطهن وطبيعة الفكر السائد والمتعلق بمثل من في ظروفهن فهنا يلجأن إلى الاستمرار في نيل التوقير عن صب اللعنات، وهذا التوقير بعد وقت قد يتحول إلى أداة تعذيب تمارس ضدها بحكم التكرار والاستمرار بعد أن كان يخدر ألمهن ويحتال على صوت يتردد في الداخل من حين لآخر فيسكته.

وقد مرت سنوات ولم أتزوج لكل تلك الأسباب ولكني ربما لو كنت أقدمت على التجربة لم أكن لأسمح لشيء أن يمنعني كان المانع قابعًا بداخلي كنت أضعف وأبكي أحيانًا فمسألة العمر الذي ينفرط تخيفني وكم ترهقني فكرة أن يأتي الخريف وعلامات السن قد زحفت على وجهي وجسدي! لا أدري كيف سأتصرف حينها وبم سأشعر! إني لأتذكر ذلك اليوم جيدًا يوم نمت ليلتي باكية فجأة بعدما كنت أعيد ترتيب أرف خزانة ملابسي ووقعت عيني على بعض الملابس لم أكن قد ارتديتها لم ألحق لم أبكها كنت أبكي حظًا عاثرًا كنت أود لو نعيش أضعاف السنوات التي عشناها معًا حتى نكبر وتهترئ تلك الملابس جميعها نرتديها في أيامنا التي نحياها معًا كانت لحظات قاسية ولكني قد احتفظت بملابسه لسنوات من وفاته إلى أن اعتصرني الحزن على نفسي فقررت أن أهبه ثواب من يرتديها من بعده، ولا أريد أن أشعر أني غير مقيدة بمظاهر الفقدان، ملابس رجل لم يعد موجودًا وارتبط رحيله بوجع يهزني بقوة لم أعد أحتمله ليته بقي ولم تكن كل تلك الملابس المكدسَّة تشخص أمام عيني كأكوام من الهموم والأسى.

في فضاء الكتب كنت أجد السكينة والسلوى ولوكان يعلم أبي وقتها كم سيكون لنوعية وطبيعة المجال الذي اخترت من مأثر ودور في مداواة شجوني وأحزاني لفرح حينها وشجعني ولكن من منا يعلم عن أقداره من شيء!

وبعد رحيل والد كريم تحديدًا قد أيقن وعرف؛ فمن وجوه الاختلاف وسبب مشاكلنا مع أهلنا المتعاقبة هي أن اختياراتهم لنا صائبة غالبًا ولكنها تناسبهم أكثر مننا.

لا تغمض عينك عندما يداهمك الخوف! فلا أنسى يوم خطفتني تلك الرواية التي كنت أعكف على ترجمها وأثرت عليَّ بشدة وحفرت في وجداني وهزت فكرة عالقة وراسخة بذهني إذ كان الكاتب فيها يروي ضمن أحداثها كيف أنه كان لا يخاف وفجأة حدث له موقف جعله يرتعب من مجرد أن يفتح عينيه أو يغلقهما! ربما غلق العين يدفع بمخاوفنا إلى الداخل فتتشكل وتكتمل أمام أذهاننا جلية وثابتة ففتح العين يعمل على تشتيتها لأن العين قد تنشغل برؤية أكثر من شيء يخطف الانتباه ويتوزع حينها الانتباه على أكثر من شيء!

***

باغتني ألم أسناني ولما لم أعتد تناول أي مسكنات وأقف أمام كل ما يؤلمني أحسه وأتأمله إلى نهايته لم أحتمل مع رفض تناول أي مسكن، وفي اليوم التالي توجهت في المساء فور عودة كريم من دروسه إلى أقرب عيادة لطبيب أسنان وجلست في الانتظار في حين ظل كريم واقفًا مكانه، تأملته بعين واهنة تحت ضربات الألم ودار بصري في أركان العيادة يتضح أن المكان مريح ونوافذه مشرعة على الطريق تسمح بتجدد الهواء في المكان وقد امتلأ المكان بنسمات باردة، كنا في مقتبل فصل الشتاء وإلى جانب من المكان

منضدة من طابقين بارتفاع أقل من متر عليها عدد من المجلات الطبية والثقافية والفنية تحمل أغلفتها صورًا لنجمات سينما وأخرى لمطربات وشاشة عرض تلفزيونية متوسطة مدارة ويعرض مسلسل أجنبي سريع الإيقاع وبيد أحدهم جهاز التحكم في التلفاز وكان بعض المرضى يشاهد التلفاز عن كثب واستغراق يبدو أنه كان مرافقًا فقط لأحدهم وإلا لما كان يشاهد بتلك الحالة من الأريحية والترقب.

كان المتواجدون في المكان يغلب الصمت على أكثرهم إلا من عدد قليل من مرافقيهم وخمنت ذلك لما رأيته على وجوههم من حالة انبساط تعبيرية لم يكونوا يتوجعون مثلي أو يكافحون نوبات ألم الأسنان، أما الجدران فلونها أبيض ومعلق أعلى النوافذ ستائر رقيقة يحركها الهواء بخفة، السكرتيرة فتاة صغيرة منشغلة بتدوين الأسماء تباعًا وبين لحظة والثانية تنظر في شاشة هاتفها الذي يستقر إلى جانبها من طرف المكتب من الداخل يبدو أنها مع الآخرين في حالة ترقب! أملاها كريم اسمي فور دخولنا ثم جلست في حين أفسح مكانًا وحيدًا فارغًا لرجل كبير في العمر نسبيًّا يتوجع من ضرسه بشدة فرمقته بنظرة رضى فابتسم على إثرها وانزوى بعيدًا في ردهة بمقدمة مدخل العيادة فنظرت إليه ليدخل وبالفعل استجاب ورأى أن يقترب من مكتب السكرتيرة ويسألها عن دورنا فنظرت إليه باستنكار وأشارت إلى عدد يبدو كبيرًا تقع أسماؤهم أمامي فقام بعمل ما اتفقنا عليه ودفع كشفًا مستعجلًا فنظرت بدورها الفتاة ناحيتي ولاحظت نظرة شفقة

في عينها نظرات لصمتي المريب وامتقع وجهي بسبب الألم المستمر فتجاهلت نظرتها ونظرت إلى كريم الذي كان ينظر ناحيتي بترقب قطع كل ذلك صوت جرس من ناحية باب غرفة الكشف فقامت على الفور الفتاة لتظهر أخرى تبدو من هيئتها أنها مساعدة الطبيب، سيدة في أواخر الأربعين بسيطة ولكنها نشيطة تتحرك بسرعة لافتة وتوجهت مسرعة إلى جانب في العيادة يبدو أنه مطبخ لأنها عندما عادت كانت تحمل زجاجة من المياه ولكن لم لا يتوافر في جانب من غرفة الانتظار مبرد للماء! وفوجئت أن بيدها الأخرى طبقًا كبيرًا به مادة ملونة فتوقعت أنه ليس بمطبخ هو أقرب إلى أن يكون في هذه الحالة معملًا أو ما شابه.

خرجت من غرفة الكشف سيدة تضع قطنة في زاوية فمها ترافقها شابة صغيرة على ما يبدو ابنتها وخرجت السكرتيرة لتخبرنا أن ندخل فدخلت أنا وكريم.

الطبيب رجل متوسط الطول يرتدي معطفًا أزرق اللون يبدو في منتصف الثلاثين يلبس قفازين في يديه ويضع كمامة على أنفه وفمه راق لي هذا بشدة وقدَّرته فهو يحمي نفسه ومريضه من أي عدوى متبادلة!

أنا وكريم معًا: مساء الخير!

الطبيب يبتسم بود: مساء النور!

وجلست في حين ظل كريم واقفًا، ترددت في فتح فمي وأشرت بطرف إصبعي السبابة:

- ضرسي أيها الطبيب يؤلمني بشدة من فترة وتوقف الألم ولكنه عاودني من جديد ليلة أمس.

فأومأ برأسه في ود وبآلية أشار إلى غرفة الكشف الملاصقة مباشرة للمكتب بلا باب فتوجهت ناحيتها وتبعني كريم بحرص بالغ، ودخل الطبيب بعدنا.

جلست على الجهاز وتمددت في حذر، ووقف الطبيب بجانبي ففتحت فمي لم أكن في حال يحتمل طرقات آلة تشبه القلم أمسك بها وهو يفحص فمي فتوجعت وتأوهت بصوت واضح وكادت تدمع عيني فنظر كريم ناحية الطبيب في استنكار وشفقة كبيرة لم ينتبه إليها الطبيب الذي واصل عمله قائلًا:

- الضرس ملتهب بشدة ويجب أن نعمل على علاج الالتهاب أولًا ثم تجهيزه للحشو بأقصى سرعة فعمر الضرس على وشك الانتهاء فهو إلى ضرس مهيأ للخلع.

فنظرت إلى عينيه من خلف الكمامة الموضوعة على فمه فلمح في عيني خوفًا ما وجزعًا أقرب إلى فوبيا من ناحية كل ما يخص متاعب الأسنان فأومأ برأسه بلطف مطمئنًا إياي.

ظل كريم منصتًا إلى حديث الطبيب وقمت أنا وتبعناه إلى مكتبه فانكفأ على روشتة يكتب العلاج فنظر إليَّ كريم وقال تفضلي يا أمي وأشار إلى الكرسي أمام مكتب الطبيب وهنا انتبه الطبيب لكريم لأول مرة أو ربما

استوقفه أن شابًا رائعًا يافعًا ذا قوام رشيق ورياضي مثل كريم يناديني بأمي فنظر في وجهي ووجه كريم هل قد رآنا عندما دخلنا ولكن لم عقد تلك المقارنة فهو ابني وهذا جلي واضح، فالتقط كريم الروشتة.

الطبيب مؤكدًا موعد الاستشارة:

- يوم الاثنين القادم.

كريم: حاضر أيها الطبيب إن شاء الله!

وأومأت برأسي ثم قمت من مكاني متجهة مباشرة إلى الباب وخرجنا.

قصد كريم أقرب صيدلية من مكان العيادة ودخلنا نحضر العلاج ثم رجعنا إلى بيتنا.

دخل كريم ليذاكر دروسه في حين تناولت الدواء حتى خف الألم بشكل كبير ساعدني على قراءة عدد من الصفحات في الفصل الثاني من كتاب كنت أعكف على قراءته لتجهيزه للترجمة.

***

في الصباح توجهت إلى المركز بعدما أوصلت كريم إلى مدرسته في طريقي فتح الباب وهبط من السيارة فأرقبه يصافح زملاءه ويتضاحكون وهم يعبرون معًا بوابة المدرسة المفتوحة على مصراعيها ويتوافد الطلاب باتجاهها.

قابلني الهواء المنعش من الحديقة وسرني اهتزاز الزهور في أماكنها على أغصانها بمركز نشر الثقافة والتواصل مع الآخرين وثقافتهم لصنع جذور تقرب بين عالمين وشعبين، العطور التي تفوح من الحديقة دالة على أنه مركز ثقافي فرنسي حقًّا فما المكان الأنسب لوجود الزهور من مكان عد خصيصًا للتواصل بين الحضارات والثقافات المختلفة إن لم يكن هنا حيث الأجواء الباعثة على الراحة والانتعاش فأين إذن يكون وجودها! والأرضية الندية للمكان المؤدي إلى المبنى العتيق تعكس أجواؤه عبقًا من ثراء الثقافة وسمو الحروف ووهج الكلمات تحمل الجدران لوحات عتيقة تحمل رسومات دقيقة بألوان دافئة وعلى واجهة المركز من الخارج لوحة نحاسية تتلألأ بأشعة كالذهب في صحبة رفع الشمس حرارة المكان يتلألأ بما فيه وتحتوي الحديقة على مجموعة منوعة من الزهور والورود وأنواع نادرة من الأشجار أقرب إلى شجيرات متوسطة ومتدرجة كبيرة وصغيرة وفي أول ردهة وهي كبيرة مقارنة بباقي ردهات المبنى تحمل على جدرانها لوحات عملاقة بأطر ذهبية مزخرفة لصورة من أبرز الأدباء والفلاسفة والشعراء الفرنسيين مثل فولتير وجان جاك روسو وسارتر وبوفوار وجوستاف فلوبير كما يتوسطهم لوحة عملاقة تحمل ميثاق تعامل بين الأمة المصرية والفرنسية تعكس الروابط الوثيقة بين فرنسا ومصر والاهتمامات المشتركة والأبعاد التاريخية من عراقة وعلاقة وعطاء إنساني يمتد إلى عصور بعيدة، المبنى يتكون من عدد كبير من المكاتب تقع على صف واحد من المكان وفي

الجهة المقابلة مكتبة مدير المركز الفرنسي "مسيو ميتران إيمانويل" البالغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، رجل وقور شديد التأنق والثقافة معًا ومحب لمصر على نحو صادق وعميق، كثيرًا ما يخبرنا أنه يحب أن يتجول في شوارع مصر القديمة تحديدًا وزيارة الأماكن الأثرية العتيقة ويتعمد أن يلتقط الصور له مع أشخاص مصريين بسطاء كما يخبرنا أننا محظوظون بكوننا أبناء بلد عريق صاحب تاريخ عظيم وعريق مثل مصر فنبتسم كلنا ماعدا عزيز وليليان! صدى همس صوت الموسيقا قادم من وجهة مميزة بالمكان بلا توقف أنغام فرنسية رقيقة أغلبها من الساكسفون وأحيانًا بيانو مما تضفي على الأنحاء حالة من الدفء والشاعرية.

أما مكتبة المركز فهي الأروع في المكان تمتد على مساحة أقرب لثلث المكان تقريبًا، تدهشني أرفها المصنوعة من الخشب المطلي بلون الشكولاتة الداكنة حيث تحمل عددًا قليلًا من الكتب التي تأخذ حيزها في مكانها على الأرف تتجلى من كل زواياها في أناقة وتفرد تام، المكان أقرب إلى معبد تتجلى فيه عبق الآداب وتتدفق فيه مشاعر وعواطف وأخيلة عشاق الأدب والشعر والفن والثقافة هو أقرب مكان إلى وجداني ونفسي، أنتعش فيه لا أشعر فيه أني أعمل بل أتجول في عوالم الخيال أقرأ روايات وكتب وأقوم بترجمتها بعد ذلك كان الكتاب يستغرق مني وقتًا أطول من الرواية لعل السبب يرجع إلى أن الرواية كنت أقرؤها على نحو أسرع وأدخل بها إلى عالم رحب محلقة في الخيال تنهمر عليَّ البهجة والمتعة؛ أنجزها فأسلمها إلى

المشرفين على قائمة الأعمال المختارة لترجمتها ومن ثَمَّ تعرض على المختصين بالمراجعة ومنها إلى الطبع وأغلب ما قمت بترجمته لم يحتج المراجعة الدقيقة فقد كنت على دراية وتذوق بمحتواها مما يسهل عليَّ عملية الترجمة إلى اللغة الأم، بعض الروايات ندمت أني قمت بترجمتها لا لأنها غير ذات جدوى أو لا تحمل أي قيمة أدبية أو إنسانية مطلقًا ولكنها كانت مفزعة حقًّا لأنها جعلتني أنكمش على نفسي في حالة صدمة وتخبط كبير ولكني ترجمتها، وكلما شعرت بخوف أهالت عليَّ ذاكرتي تفاصيل تلك الرواية لغلق مساماتي على مخاوفي، أتوقع أن أتذكرها في عيد ميلادي القادم، مع مداومتي على تناول العلاج الذي أوصى به الطبيب وإن رافقتني مخاوفي -عدنا إلى المخاوف ثانية!- من تجدد الألم أو انتقال حالة ضرسي إلى غيره ولو بيدي لتخلصت من ألم ضروسي دفعة واحدة.

لا أدري ما صحة ما ورد ن أن بعض اليابانيين قد أفلتوا من آلام الأسنان عندما أقدموا على خلع أسنانهم واستبدالها بأخرى اصطناعية تجنبًا لانتقال الأمراض من الأسنان إلى باقي الجسم وخاصة القلب! وإن كان الأمر عصيًّا على التخيل، ولكن ربما تألموا مرة واحدة عقب زوال تدريجي للبنج بعد عملية الخلع، لا أستطيع أن أتخيل الأمر!

***

في موعد استشارتي توجهت إلى عيادة طبيب الأسنان وانتظرت دوري، فلما حان دخلت إليه فبدا منهكًا وقد رفع عنه الكمامة ليلتقط أنفاسه ربما لمحت وجهه وتفاصيل وجهها لأول مرة له عينان سوداوان واسعتان لهما بريق لامع وجهه مستدير أقرب إلى أن يكون مربعًا وشعره ثقيل، ومن مقدمة جبهته أقرب إلى أن يكون أجعد قليلًا وله ابتسامة هادئة ساحرة:

- مساء الخير!

- مساء النور، تفضلي!

وأشار بيده فور قيامه من على كرسيه إلى غرفة الكشف فدخلت فلحق بي فجلست على الجهاز واقترب من رأسي وسألني:

-كيف الحال، ضرسك ما زال يؤلمك؟

- لا، لقد تحسن كثيرًا مع الأدوية.

-واضح، الالتهاب خف واختفى كليًّا، نقدر الآن على عمل حشوات الضرس.

وابتعد قليلًا وسار للأمام وفتح درجًا كبيرًا وأخرج منه مادة صفراء وأخرى زرقاء ملفوفة في رقائق من البلاستيك الشفاف على شكل مكعبات والتقط من الدرج نفسه شيئًا معدِنيًّا يشبه الفك الآدمي ولكنه مصنوع من المعدن.

ابتسمت في نفسي وتظاهرت باللامبالاة، ظل واقفًا مكانه لدقيقين راجعت فيهما أسئلة تدور في رأسي أنوي توجيهها إليه، بعدها عاد بأشياء وقال:

- سآخذ مقاس الضرس ليتسنى تجهيز غطاء له يحميه لأطول فترة.

فبادرت بأحد الأسئلة:

- ما العمر المفترض لبقاء ضرسي هذا في فمي دون خلع؟

فابتسم:

- لا تخافي سيصمد لفترات طويلة فليس معنى إصابته نفاد عمره، الضرس قد يعيش طويلًا طالما تم إنقاذه وتلافي مسببات تآكله، ومحاصرتها، فقد أنقذنا ما يمكن إنقاذه.

فتنهدت وابتسمت مستبشرة فبادرني بفك معدِني هائل يوجهه باتجاه فمي في آلية وهدوء

فابتسمت وكتمت ضحكة بداخلي وأنا أتأمل الفك المعدِني وأنظر إليه حيث فطن ما بداخلي فابتسم! إنه لموقف محرج أن أفتح فمي بزاوية منفرجة ليستقر فك هائل كهذا على فكي المسكين فنظر إلى فمي وهو يحاول عقد مقارنة بين حجم المعدِني وفكي وأنا أراقب في شفقة على نفسي!

ابتسم في حرج واتجه إلى الدرج الأوسط من بين مكتبة قصيرة تضم أدراجًا عدة كبيرة الحجم فأخرج فكًّا معدِنيًّا آخر وتقدم ناحيتي به وأنا أراقب عن كثب!

الطبيب وقد أتى بالفك الأقرب لحجم فكي ففتحت فمي على الفور واستقر الفك المعدِني على فكي السفلي حيث ضرسي المقصود برحلة العلاج من إزالة لأثر السوس فالتآكل، ثم عمل الحشوات، ثم قناع اصطناعي بلون الأسنان ليحافظ على عمر الضرس لأطول مدى كما أخبرني وطمأنني من قبل.

أخرج الفك بآلية وأمسكه بين يديه وملأه بالعجينة الملونة بإحكام ثم عاد ففتحت فمي وأغمضت عيني واستقر الفك المحشو بالعجينة على فكي السفلي وأخذ هو يضغط على الفك المعدِني فوق فمي فتوجعت فتحرج وبادر بالاعتذار:

-أنا آسف، ولكن حتى يكون حجم غطاء الضرس مطابقًا تمامًا.

فنظرت أمامي وكتمت توجعي الحقيقي من ضغطه المتكرر على الفك المعدِني بالعجينة فوق فكي ثم أخرجه وأنا في حالة صمت وشفقة واستشعرت طعم المادة الملونة هذه، فالتفتُّ لأمسح أثرها من على شفتي فوجدته يساعدني في ذلك ويزيل بالمنديل الورقي آثار المادة الملونة عن شفتي وأنا هادئة لم أندهش واعتبرتها في إطار عمله، وسبقني إلى مكتبه ثم لحقت به في انتظار أن يكتب جديدًا في الروشتة ولكنه كان يدون في ورقة خارجية مقاسات الضرس على ما يبدو.

- موعدنا مثل اليوم ستكون التركيبة جاهزة يا مدام أحلام.

-إن شاء الله!

وخرجت في هدوء وأغلقت باب الغرفة خلفي، وغادرت العيادة مبتسمة، وركبت سيارتي متوجهة مباشرة إلى بيتي.

في الطريق توقفت لأشتري بنًّا وزبدة وخبزًا ومربى، وعندما وصلت بيتي لم أجد كريم لم يعد بعد من دروسه وفكرت لو كنت انتظرته لما ذهبت في موعد استشارتي، ثم دخلت غرفتي وبدلت ملابسي وتوجهت إلى الحمام لأغسل أسناني وتمضمضت مرات بالمحلول الطبي الذي أستعمله وتلاقت عيني في المرآة ولمع في خاطري لحظة مسح الطبيب لفمي بالمنديل ليرفع أثر المادة الملونة فابتسمت ثانية وعيني تلمع بالدهشة وجففت فمي ووجهي برفق وخرجت.

أمسكت بالكتاب الذي تعطلت القراءة فيه بسبب ألم ضرسي المفاجئ وشرعت في القراءة من عند تلك الفقرة التي توقفت عندها.

***

في الصباح فتشت عن رولا لأسألها عن قاموس العامية الفرنسية لقد فقدت قاموسي من فترة وأخبرتني أنها ستعطيني آخر يخص والدها هدية منها لي رغم أن في المكتبة الكثير ولكنها ربما وجدتها فرصة لتصالحني بعد خلاف إثر استشارتها لي في مسالة عاطفية تخصها ولم يرق لها رأيي حينها فقبلت عرضها وشكرتها متفاجئة فربتت على كتفي بود ومحبة وتعانقنا وأخبرتها أني ما زلت بانتظار القاموس.

جلست في مكتبي بعدما طلبت كوبًا من النسكافيه أتأهب لبدء عملي وأستأنف العمل في مشروعي القائم واستغرقت في عمل الترجمة للرواية التي قد تستغرق

مني –كسابقتها– ثلاثين يومًا، أخذني الوقت ووجدت الوقت قد اقترب من الواحدة ظهرًا انتبهت مع طرقات على باب المكتب فنظرت من خلف الحاسوب المحمول والكتاب أمامي مفتوحًا:

– تفضل!

ظهرت رولا، وللوهلة الأولى تدرك أنها تنحدر من جذور فرنسية فهي نحيفة، وبشرتها بيضاء، وعيناها ملونتان تميلان إلى الزرقة، ملامح وجهها دقيقة، وقسماتها تميل إلى الجدية، وفي قاع عينيها تتوارى ابتسامة هادئة لا تفارق وجهها، ترتدي غالبًا سروالًا وسترة قصيرة بلا أكمام وأحيانًا بأربطة حول الرقبة فقط، وتميل إلى قص شعرها كلما تجاوز في طوله الكتفين.

بنبرة صوتها العذبة وبلهجة عربية متأثرة بالفرنسية –كما تفضل– متجنبة أن تتحدث بالفرنسية في مصر كما اختارت وتردد هذا باستمرار.

رولا: صباح الخير "أهلام"!

أحلام: صباح النور رولا!

وضحكت أحلام من نطقها حاء اسمها هاء بإصرار!

ثم أخرجت من خلف ظهرها مجلدًا متوسط الحجم بغلاف أزرق اللون حُفر عليه بخط دقيق ربما هو قاموس العامية الفرنسية وقدمته لأحلام وهي مبتسمة، قفزت في مكانها وهي تتأملها في محبة وعانقتها بحرارة وقالت:

- سيلازمني على الدوام.

-أكيد، ضروري.

-فهو هديتك الرائعة لي.

-لا تخجليني أحلام!

ولا ترهقي نفسك في العمل! أرى علامات الإرهاق على عينك!

- ليس العمل...

فقاطعتها على الفور بتخمين: الفكر، الانشغال؟

ثم جلست على الكرسي أمامها:

- لِمَ لم تتزوجي للآن يا أحلام؟

- لأنني أخاف!

ولم تستغرب رولا فقد سبق وأخبرتها أحلام بتلك الإجابة ولكنها ما زالت غير مقتنعة فقامت في مكانها ولم تكمل ما تود الحديث فيه فهي مثل أحلام تختار الأوقات المناسبة للاستغراق في الأحاديث الحميمة والخاصة خارج أوقات العمل.

وقالت وهي تهز رأسها:

سأنتظرك في المقهى لأن هذا الموضوع يحتاج إلى وقت وشرح وجهة نظرك كما أني أود إخبارك بالجديد عني مع مارك وهي تمسك الباب بطرف يدها مبتسمة أراك في وقت الاستراحة؟

فابتسمت مؤيدة فخرجت.

تركتها في حيرة بادية في عينها محاولة طرد خاطر ما يلح عليها.

رشفت أحلام من النسكافية وعادت تستأنف العمل فقربت كريسها واعتدلت في جلستها وقربت شاشة الحاسوب المحمول قبالتها مباشرة.

في ذروة الظهيرة في مقهى المركز، حمل الهواء نسمات منعشة ورقيقة من الجهة المقابلة للشجيرات القصيرة التي تظهر من جانب يطل عليه المقهى طغى عليها عطر رولا الأخاذ، إن أمرها لعجيب فكلما تحدثت معي عن الحب أجد العطر ينتشر من حولنا إنها رومانسية وعاشقة تسرف في الحديث عن الحب وأنتشي أنا عائدة خالية الوفاض فقلبي مغلق من سنوات لسبب ربما يعلم به قلبي ولا أدري!

رولا مبتسمة بحب مردفة:

- قلت لمارك إنه علينا أن نقوم بوضع خطة.

-خطة!

-ونبدؤها على أول العام، نعم "أهلام" خطة، على أن يمهد كل منا للموضوع مع أهله لإخبارهم عن نيتنا الزواج.

-وماذا قال؟

امتقع وجه رولا وقالت بتأثر:

- قلت لك من قبل إنه رفض؟

- أجل.

- وأنه فضل أن نؤجل هذا بعض الوقت وقد غضبت بشدة وفسرت ذلك على أنه...

- تهرب من وعد الزواج بك.

-لكنه أكد فيما بعد معرفة أهله بنيته الزواج مني.

- هو صادق معاك يا رولا.

-ولكن يا "أهلام"، يعلمون أن والدي كان من ألد أعداء والده فسوف يترتب على ذلك رفض تام للارتباط بيننا.

تنصت أحلام ولا ترد خاصة لما بدا على ملامح رولا من أسى وسخط مردفة:

- كنت سأقاطعه قبل أن يقولها، قالها في وجهي، قالها صريحة إن أهلي يرفضون زواجه بي!

لِمَ يفسد الأهل هكذا حياة أبنائهم، ما شأنهم بقلبين متحابين!

وبندم وحنق:

- كان يتوجب عليَّ ألا أسأله عن رأي أهله في أمر الارتباط.

تنصت أحلام بحيادية لا يبدر منها أي ردة فعل.

- أنا أحبه وهو أيضًا؛ فلم لا نرتبط طالما نحن موافقان على ذلك؟

صمتت لدقائق وهي تتأمل عيني تستوضح وتتأكد من شيء واستطردت:

- وضع النساء متشابه غالبًا في مختلف الثقافات؛ ثمة قيود تفرض علينا جميعًا رغم ما نحقق ونعايش من أجواء أقرب إلى أن تكون هي السوية يتسيدها الوعي والنور والثقافة، لكن رأيك الذي اختلفت معك بصدده لم يكن خاطئًا بل هو الصواب، وربما هذا ما دفعني لأثور وأغضب عندما قلت إن الحب يختنق بالارتباط.

وقبل أن ترد أحلام في محاولة لتوضيح ما كررته رولا وما كانت تعنيه بقولها لاحظت أن رولا لا تحتمل أن تطيل الحديث في الأمر فتوقفت عن الكلام في تلك اللحظة وشعرت أن هذا أفضل ما يمكن أن يحدث وبدورها أشارت بود من مكانها إلى فني تشغيل الأغنيات والموسيقا في المقهى وإذا به على الفور يومئ برأسه مجيبًا فتفاجئنا موسيقا الخريف لشوبان التي أخذت حيزًا من المكان والكلام فجلسنا ننصت إليها ونحن نحتسي قهوتنا.

***

طرقت باب غرفة كريم الذي ظل نائمًا من بعد أن عاد من دروسه قبيل السادسة مساء إلى العاشرة مساء قلقت عليه فاقتربت لأوقظه وجدت صوته صافيًا وهو يرد عليَّ فعلمت أنه مستيقظ.

وطرقت باب الغرفة مجددًا بتردد ملحوظ لأترك له حرية الرد عليَّ، وما إن استدرت مبتعدة عن الباب حتى وجدته قد أشعل النور وتناهى صوته إلى سمعي:

- ثواني فقط يا أمي وألحق بكِ.

- كان من الجيد ألا ألح إذن في طرق الباب.

وبعدما تناولنا العشاء تجنبت النظر إلى وجهه وفضلت أن يخبرني ما به فليس من عادته أن يستغرق في النوم في هذا الوقت ولكنه ظل صامتًا فاستأذنته وتوجهت إلى حجرة مكتبي دون أن أعرف ولم يخبرني ولكنني على تمام العلم بأنه سيتحين اللحظة المناسبة ليخبرني، ثم استغرقت في القراءة وتسجيل الملاحظات دون أن أشعر بالوقت.

في الحادية عشرة والربع عاد جمال إلى بيته في مثل موعده من كل يوم بعد انتهاء عمله في العيادة، فتحت له نهى مبتسمة فبادلها الابتسامة ودخل مباشرة وأغلقت الباب فلحقت به تتبعه وهو يميل برأسه ويسأل باعتيادية في اهتمام وشوق:

- أين الفتاتان، أتمنى أن تكونا مستيقظتين؟

هزت نهى رأسها في دلال وضحكت بمرح وهي تمرر كفها على ذراع جمال بحميمية وفي اعتيادية:

- انتظرتا ولكنك تأخرت كالعادة!

فيتظاهر جمال بالاستغراب يبدو أنه ردها ذاته عليه في كل مرة فينظر بشيء من التأثر يود لو يعود فيلحق بهما قبل أن تخلدا للنوم وباستسلام يدخل جمال مباشرة إلى الداخل يخلع معطفه ويعلقه على الشماعة ويشرع في فك أزرار القميص بتململ ويبدو عليه الإرهاق فيجلس على طرف السرير! في حين قد توجهت نهى إلى المطبخ تعد له العشاء كالعادة وفي مثل هذا الموعد يتناولان عشاءهما معًا ويظلان قرابة الساعتين يتحدثان بشأن كل ما حدث وجدَّ بخصوص البنتين وما حدث لكلٍّ منهما خلال اليوم.

جمال وهو يتثاءب ويغالب النوم يسير ببطء متسللًا إلى غرفة ابنتيه التوأم فيقصد سرير مي بعد منة يضع قبلة على جبينها هي الأخرى ويمسح بكفه على شعرها ويجذب الغطاء حتى أذنيها ويتراجع في هدوء خشية أن تقلق إحداهما ويظل لدقائق يتأملهما وهما نائمتان كلٌّ في سريرها يتأمل وجهيهما البريئين وعيونهما المدهشة وهي تغفو في عالم الأحلام وخصلات شعرهما تتدلى على جبهتهما بحرية تمتلئ عينه بالحب والشفقة والحنان عليهما ويتراجع قليلًا إلى الخلف ليجد نهى خلفه تتأمله بحب وتنحني على كتفه في دلال فيجذبها برفق من يديها ويتوجهان إلى غرفة نومها.

***

عند الثالثة عصرًا من كل يوم يحل وقت الذروة في العيادة حتى الحادية عشرة مساء وذلك ليتجدد يوم شاق ومرهق ففي الانتظار عدد كبير من المرضى ومرافقيهم من مختلف الأعمار وجوه تئن في صمت وأخرى صامتة في تململ وجباههم مقشعرة، إنه ألم الأسنان الذي لا يرحم ولا يفلت منه صغير أو كبير!

نسمات الشتاء تتسلل إلى داخل العيادة عبر النوافذ المفتوحة فتقوم إحدى السيدات وتغلقها بإحكام خشية أن يسقط منها طفلها الذي يدور حول الكراسي ويقفز ثانية فوق الكرسي المجاور لها فينظر الطفل إليها باستياء فتهدهده وتجلسه على حجرها في حين أني ممسك بمجلة أقطع بها رتابة الجو وبطء الوقت، ثم ظهر شاب في أواخر العشرين يصطحب سيدة كبيرة في العمر تئن تحت وطأة آلام أسنانها على ما تبدو عيناها الذابلتان وخداها الغائران ووجهها الشاحب، ترجل الشاب باتجاه السكرتيرة بعد إلقاء التحية على الجميع ولم ينتبه إليَّ فقمت بالرد وجلست السيدة في مواجهتي صامتة مستغرقة في أنين أسنانها.

الشاب: عيادة الطبيب جمال عبد الحميد؟

فتبسمت السكرتيرة وردت بالإيجاب مومئة برأسها في اعتيادية مبالغ فيها، وسألها همسًا عن قيمة الكشف وعلى الفور مد يده ببعض النقود إليها فقامت بتدوين اسم والدته الذي قاله في همس وهو ينظر ناحيتها واسترعى انتباهي اسم طبيب الأسنان جمال عبد الحميد لأول مرة، أعلم أن اسمه

جمال ولكنني لم أنتبه إلى أن هذا الاسم منفصل عن صفة الطبيب كنت أعتبر اسمه جزءًا من عمله ولقبه الطبيب جمال... جمال، اسمه جمال عبد الحميد أم الطبيب جمال عبد الحميد، وما الفرق بينهما إذن هو اسمه على كل حال ولكنني لم أكن أتوقف أمام مسألة فصل اسمه عن لقبه!

وفجأة، قطع عليَّ خاطري صوت السكرتيرة التي نادت اسمي فقد حان على ما يبدو أخيرًا دوري؛ فقمت من مكاني وتوجهت في آلية إلى غرفة الكشف وهي تقول لي:

- دورك يا مدام أحلام!

أحلام، أم مدام أحلام!

كم أكره هذا اللقب قبل اسمي ولكن ماذا ستقول لي هل أكتب قبل اسمي الأستاذة أحلام مترجمة بالمركز الثقافي الفرنسي وقد قمت بترجمة عدد من روائع الأدب العالمي والفرنسي خاصة!

دخلت غرفة الكشف وعيني منشغلة مع خواطري فانتبهت إلى الطبيب يرحب بي:

- أهلًا مدام أحلام!

فنظرت إليه وابتسمت بعفوية وأخفيت تعقيبي فهذا ما كنت أردد بيني وبين نفسي من هنيهة!

- أهلًا أيها الطبيب، مساء الخير!

- مساء النور، تفضلي!

وظل جالسًا في مكانه فاستغربت وأخفيت ذلك وجلست أمامه، فقال:

- أنا في غاية الحرج من حضرتك!

- لم؟

- لم يرسل لي المعمل الطربوش!

فتغير وجهي وأردفت على مضض:

- لو أني أعرف ما أتيت!

- أكرر اعتذاري، هل رقم هاتف العيادة معك؟

- معي بالفعل ولكن أحيانًا لا أجد ردًّا وقد حدث ذلك مرتين.

فمدَّ إليَّ يده ببطاقة تحمل اسمه ورقمين له؛ فأخذته منه ونظرت فيها وأنا أقرأ اسمه في سري وأنظر إلى وجهه وكأني أطابق الاسم مع الشكل! ثم وضعت البطاقة في حقيبة يدي وهممت بالانصراف وقد ظل هو مكانه يراقبني مبتسمًا ولرفع الحرج عنه قلت له بود وامتنان لحالة الحرج التي بدت عليه بالفعل:

- أستأذنك!

فابتسم على ما يبدو لتقبلي أبعاد ذلك الموقف أو لسبب آخر إذ لمحت في عينه بريقًا لامعًا تصاحبه ابتسامة متأنية ونظرة موسعة عليَّ وإن كان مسلطًا نظره في عيني فقط، وانصرفت.

***

في ضوء خافت إلا مما تحدثه إضاءة شاشة التلفاز المدار الذي يتراوح بين ضعيف وآخر جلي، تجلس أحلام مستغرقة في متابعة برنامج تلفزيوني بانتباه وتركيز، وفجأة يظهر كريم قادمًا من غرفته متسللًا في هدوء يرمقها مبتسما في محبة ويقوم بالجلوس بجانبها فتنتبه وتبتسم دون أن تلتفت ناحيته فيقوم بسحب جهاز التحكم بالتلفاز فيضحكان!

حينئذ استشعرت أن تلك اللحظة قد حانت؛ وأنه سيبوح لي بشيء الآن!

فبادرته مازحة:

- ولكنني اليوم لست على ما يرام وغير قادرة على سماع أخبار مشاكساتك مع زملائك في المدرسة! فانفجر ضاحكًا وبلا مقدمات استرسل في الحديث:

- هشام دائمًا ما يسيئ فهمي عمدًا!

تراجعت أحلام مستندة إلى ظهر الأريكة تنصت في جدية واستنكار:

- هشام أقرب أصدقائك إليك وأنت تختبر صبره على الدوام!

- يميل إلى إظهاري عنيفًا سريع الغضب!

- هي الحقيقة يا كريم!

عليك التأني في تقدير المواقف ووزنها حتى لا يصدر عنك ردات فعل غاضبة تصل إلى العنف!

مدافعًا عن نفسه يلتمس الحياد من جانبها:

-ولكنني يا أمي لست عنيفًا؟

ويقطب جبهته في تأثر فتميل أحلام ناحيته وتداعب مقدمة رأسه وتهز شعره بطرف إصبعها مداعبة:

- العنف له مظاهر كثيرة؛ الكلمة الحادة عنف والقاسية عنف مضاعف وتعمدها هو كل العنف، من الكلمات ما هو أشد ضراوة من تسديد اللكمات يا كريم!

ارفق بصديقك؛ امتلاكك لصديق وفيٍّ ومحب من أروع ما يمكنك الاحتفاء والزهو به،

لو أعانكم الحظ تبقى هذه الصداقة على مر السنين تتنامى الذكريات الطيبة بينكما وتصمد صداقتكما في وجه التحديات، طالما يخلص لك فابتعاده عنك لسبب متعلق بك يعد أكبر خساراتك صدقني!

كريم ينصت إليها متأملًا...

***

جمال يجلس بين ابنتيه يشاهد معهما فيلم كرتون في حالة ترقب وتشويق كبيرين

تقفز منة وهي تضبط جلستها على أحد رجليه فيساعدها، تحكم جلستها ويضمها في حنو وحب في حين تستند مي برأسها على صدره وتكاد

لا يتحرك أي من جفنيها وهي تراقب تحرك الرسومات الملونة والمتحركة بمتعة وابتهاج في صمت مشدوهة...

تأتي نهى من الداخل تحمل القهوة وطبقًا مليئًا بالسندويشات تضعه على طرف المنضدة قبالتها وتناول مي سندويشًا ومنة تهز رأسها برفض فتنظر نهى إلى جمال في إشارة لأن يجعل منة تتناول السندويش وإذا الطفلة تلمح بعينها ما يجري فتنظر إلى أمها بعتاب وتذمر، يضمها بحب وحنان دون أن يتكلم ونهى ترمقهما بعتاب وهي تبتسم وتهز رأسها هي الأخرى ولكن بامتعاض ومرح وتلجأ لمشاركتهم المشاهدة.

تصدح الموسيقا المرافقة للفاصل فيجدها جمال فرصة للقيام والدخول إلى غرفته وتتبعه نهى، أما منة ومي فتترقبان عودة الفيلم الكارتوني.

(٢)

في أثناء اجتماع شهري يعقد "مسيو ميتران إيمانويل" رئيس المركز الثقافي في جو شاعري ساحر عقب انتهاء الاجتماع الذي تضمن التوصيات ذاتها التي يؤكد عليها "مسيو ميتران" على ضرورة إتاحة الفرصة لكل زوار المركز والعمل على زيادة محبي الآداب الفرنسية بتوفير الكتب التي يطلبها ويبحث عنها مرتادو مكتبة المركز وأصحاب العضويات خاصة وإتاحة الفرصة بكل جدية لمن يرغب منهم في زيارة الجمهورية الفرنسية، والأروع منه ما أنتظره منه وأحبه تأكيد "مسيو ميتران" على مكانة مصر في وجدانه، ومن يوم التحقت بالمركز ألفت منه اعتباره مصريًّا ولد في فرنسا دلالة على اعتزازه بوجوده في مصر هو رجل عظيم بحق ومثقف على نحو مذهل أكاد لا أنسى كيف يحافظ على بريق عينيه نديًّا أمام عدد الساعات الكبير الذي يقضيه في التهام الكتب فيبتسم مثل كل مرة ويخبرني أن حبه وشغفه هما ما يحافظان على سلامة نفسه وأنهار المتعة تمطر عليَّ من عينيه بالندى، كم يسعدني منه حديثه المفعم بالحب والاعتزاز بوجوده بيننا وأنه كل عام يحتفل مع زوجته وابنيه بيوم اختياره ليكون سببًا على حد وصفه في مد جسور التواصل بين ثقافة بلدين عريقين كمصر وفرنسا، أما الصور فيلتقطها للأماكن هنا وله في شوارع القاهرة القديمة وفي أسوان والأقصر وهو يتجول بينهما هناك.

كان يومًا ممتعًا ومرهقًا في آن واحد حرصت فيه على تجنب مجرد النظر إلى حيث تجلس ليليان، أما عزيز فقد حاول الحديث معي مختلقًا أي موضوع وهو مدرك تمامًا لعيون ليليان التي تراقبه وهي في حالة استنفار وتربص ربما راق لها تجاهلي له وتجنب الحديث معه واستغرقت بالحديث مع "مسيو ميتران" ومساعديه في حين ظلت رولا صامتة طوال الوقت شاحبة!

ماذا تفعل فينا نبضات قلوبنا عندما تتأرجح مستويات الحب بنا! ما زال خلافها مع مارك يؤثر عليها وكل يوم يمر يباعد بينهما فينعكس أثره على وجهها وعيونها.

يجب أن أغبط نفسي قليلًا على أنني خالية القلب أنام بملء عيني وأصحو على أول رنة للمنبه.

***

كان صوت كريم يتردد في الصالة وأنا واقفة في المطبخ وهو يراجع أحد دروسه بصوت عال، وأنا أترقب نضج الكيك حائرة بين تركها لدقائق أخرى والعودة لقراءة الفصل الأخير من الرواية التي أعكف على قراءتها من أسبوع مضى، ها هو صوت كريم يعلو أكثر ويبدو أنه قد اندمج أخيرًا في أجواء المذاكرة حيث إن امتحاناته قد اقتربت.

فتحت الفرن؛ فلمحت احمرار وجه الكيك واختبرت نضجها بعود الخلة فأغلقت الغاز وقمت بإخراجها على الفور من الفرن لتهدأ ورفعت طبقين من الحجم الصغير وشوكتين على أمل أن تبرد حتى أعد الشاي.

وضعت قطعتين في كل طبق مع الشاي واتجهت إلى الصالة وأدرت جهاز التلفاز وناديت:

- كريم؟

صوت كريم من الداخل:

- ثواني يا أمي...

- تعال، تذوق الكيك، وخذ لك فاصلًا واسترح قليلًا ثم عاود مذاكراتك!

فجاء مسرعًا متهلل الوجه وهو يرمق الكيك بشهية قائلًا:

- الأجمل من طعم الكيك هو تلك الرائحة الرائعة!

فناولته طبقه وأنا أشتم رائحة الكيك من طبقي فيبتسم وهو يلتهم أول قطعة ويرشف الشاي بتلذذ:

- يقولون إن العين تأكل قبل الفم!

فصاح مؤكدًا:

- هذا حقيقي ألا ترين!

فضحكنا...

- لا أدري لم تذكرت لحظتها طبيب الأسنان هل لأن السكريات تضر بالأسنان وسلامتها!

أم لأن موعد الذهاب لتركيب الطربوش فات من أسبوعين وأكثر وأنا أتردد في الذهاب تارة وأتكاسل في أخرى!

لم ألحظ أن كريم قد قام ودخل غرفته وعاود مراجعة الدرس بصوت عال يبدو أنه قد مر وقت حتى إن صينية الكيك والشاي ليست أمامي ترى كم من الوقت مضى وأنا مستغرقة في تفكيري هذا!

وتراءت أمام عيني نظرات جمال، وأنا أهم بمغادرة غرفة الكشف في آخر مرة؛ تحسست موضع الضرس بطرف إصبعي لقد تعافى تمامًا وأرى أني لست بحاجة إلى زيارة الطبيب والتوجه ثانية إلى العيادة.

والطربوش!

لا بأس، فلقد تحسن ضرسي وما عاد يؤلمني ولا فائدة كبيرة لذلك الطربوش كما أن وقتي ضيق ولا أطيق الجلوس ساعة وساعتين أحيانًا في غرفة الانتظار حتى يحين دوري!

***

هرولت إلى مكتبي وأنا أحمل بعض الزهور التي أحببت أن أجعلها أمامي في مكتبي لتساعدني في الولوج في أجواء الكتاب الجديد الذي سأشرع في عمل الترجمة له وهو كتاب عن علاقة الزهور والتشافي من بعض الأمراض إنه موضوع حقًّا مهم ومشوق ويتملكني الفضول للاطلاع عليه قبل أن يكون بصدد كتاب ينتظر الترجمة وكفى!

وجدت أمامي رولا تبدو في حالة جيدة ترتدي سترة وردية وسروالًا أبيض وشفاهها ملونة بأوراق وردة بلدي باللون الوردي ووجهها مضيء بابتسامة مشرقة تهللت لرؤيتها بهذه الحال فابتسمت:

- رولا!

- صباح الخير "أهلام"!

- صباح الخير رولا!

"أهلام"! فضحكت على تعقيبي تعمدها نطق الحاء هاء في اسمي، وعلى استحياء مالت إلى باقة الورد بيدي تستنشق عبق أريجها وسبقتني في الدخول إلى غرفة مكتبي.

صوت رولا متناغم وجميل هل الفرحة تجعل أصواتنا بهذا الصفاء والدفء!

رولا:

- مارك أخبر أهله وقد وافقت والدته وهي في الطريق لإقناع والده!

قبلتها بحرارة وابتهجت فرحة لها:

- هذا خبر جميل والأجمل أني قرأت أثره في عيونك يا رولا!

أنت عنيدة وصبورة استطعتِ أن تدفعي بالتأني والحكمة، موقف يقرب إليك فرحتك وسعادتك مع من أحببتِ.

- الحب معركة وليست حلمًا جميلًا من لم يشحذ كل قواه ليفوز بسعادته فستتفلت منه ويهرب الحب. الحب يولد والتحديات حوله مثل الأشواك يجب علينا أن نقوم بمسؤوليتنا تجاه الحب؛ بأن نحافظ عليه ونحل المشكلات الواقعة على جانبيه والصبر في جني الثمار.

شردت وهي تتحدث وتساءلت في نفسي هل الحب في منظورنا يختلف عنه لدى الآخرين ممن يعيشون في العالم الأول! هل لأن رولا فرنسية فهي تفهم وتتعامل مع الحب بتلك النظرة وهذا المفهوم، أم أن الحب ومفهومه طرأ عليه أشياء أخرى لم أجربها أو تختبرني!

لا أفهم لم هي تتحدث بكل هذا التعقيد عن الحب!

فلمحت رولا شرودي ولأنها فطنة استشفت استغرابي من خطبتها العصماء عن الحب!

- مارك هو رجلي والحب قد اختار قلبي وقلبه ولن أفرط في فرصتي مع الهناء والسعادة وسأظل أراعيه وأدافع عنه وأحميه، وأما ما يقف أمام حبي فليس من حقه التواجد أصلا أو أن أتركه بلا دافع فأنا لا أتقبل وجود ما من شأنه تعكير نفسيتي ولا إظهاري كمن لا حيلة له فلو كنت أشتري فستانًا ولم تتهيأ الظروف لأقتنيه لأي سبب لربما فرطت فيه واقتنيت الأجمل أو عدلت عن الفكرة فلدي غيره في خزانة ملابسي التي لم أرتدِ بعضها قط ولكن مع الحب فالحال مختلف تمامًا.

كلنا يولد ليعيش ما بقي من عمره على أي نحو سيكون إنما الحب يلدنا في كل مرة ليقرر لنا كيف سنمضي ونعيش!

الحب مثل الابن يولد بداخلك ويلدك من جديد وأنا لا أفرط في مرة أولد فيها من جديد لأي سبب وربما حزنت بشدة عندما أخبرني أن والديه غير موافقين على ارتباطه بي لأن جدي لوالدي كان في عضو مؤسس بحزب

سياسي يعتنق الفكر النازي لا أفهم عقول هؤلاء ما دخل ما ينتهجه آباؤنا وأجدادنا ويعتقدونه بمصائرنا نحن واختياراتنا وميولنا وعواطفنا خاصة!

هل لو كان جدي شيوعيًّا سيتم تسديد السهام باتجاهي لأن أمي تدين بالمذهب البروستانتي، كيف يفكر هؤلاء! وليس معنى هذا أن أحب يومًا هندوسيًّا أو مسلمًا ولكن الحب قد يتخطى مثل تلك الفوارق!

قاطعتها أحلام في هدوء وبشيء من الاستنكار:

- وهل لو أحب ولدك فيما بعد مسلمة ستمانعين مثلما فعل والدي مارك في البداية؟

تنبهت رولا أني استأت مما قالت فترددت قليلًا وقالت:

- هل والداه محقان بالفعل، وإن نظرتي للحب حالمة وبعيدة عن حسابات الواقع والمنطق!

تنبهت رولا أن والدي مارك ربما كانا محقين في أسباب رفضهما زواجه منها، وتجاوزت كل هذا وبادرت بسؤالي:

- وهل هذا الزواج سيصمد أمام تلك التحديات؟ أريده ألا يفشل لأي سبب كان.

ابتلعت ريقي وتظاهرت أني أنسق الورد داخل الزهرية، وهمست في نفسي بأن بعض مساوئ غالبية الفرنسيين هو ذلك التعصب الأعمى تجاه بعض الأمور وأبرزها مسألة الأديان والفوقية غير المبررة على الآخرين!

(٣)

ما إن انتهى كريم من امتحاناته حتى انطلق في التدريبات في النادي والتنزه مع أصدقائه وأصبح يغيب عن المنزل كثيرًا وأنا أتظاهر بعدم التململ من ذلك.

رن جرس الهاتف فرفعت السماعة:

- ألو!

جاء الصوت على الخط الآخر:

- مساء الخير!

صوت لرجل!

- مساء النور، من؟

- حضرتك لم تأتي في موعدك!

فقاطعته باستغراب وضيق وأنا أحاول تذكر صاحب الصوت فقلت في حزم:

- معذرة، من أنت؟

تهلل وجهي فجأة وخفق قلبي بشدة:

- أهلًا أيها الطبيب جمال!

فأنصت له وأنا لا أدري ما بي وماذا حدث، ما تلك الحالة التي تلبستني!

تظاهرت بالثبات وبالكاد حافظت على نبرة صوتي هادئة وثابتة:

- لقد انشغلت مؤخرًا ولم أستطع المجيء إلى العيادة، وابتلعت ريقي مرات محاولة الحفاظ على نبرة صوتي معتدلة:

- الأربعاء القادم؟

- ...

- حسنًا، سآتي.

- ...

-شكرًا جزيلًا، مع السلامة!

أغلقت الخط وأنا لا أصدق نفسي ولا أجد ردًّا عن سؤالي، ماذا بي، ولم أنا فرحة ومرتبكة على هذا النحو، ولم اتصل، سرني اتصاله لكن ألأجل الطربوش، أمعتادٌ الاتصال بمرضاه بنفسه لتذكيرهم بمواعيد الزيارة!

لا أقوى على جمع شتاتي... جمال... هل اسمه لائق عليه، ولم لا وما هذا الطرح يا أحلام!

لا أدري فأنا مرتبكة بشدة ولا أدري، اتصاله أحدث بي حالة لا أدري ما اسمها، ولم أبتسم هكذا باستمرار!

قهقهت وأنا أسخر من تدافع الأسئلة على خاطري وجلست مكاني وأنا أتأمل أمامي في اللاشيء!

***

جمال يقف مكانه والهاتف في يده شاردًا وعينه تلمع وفمه ثابت على ابتسامة هادئة ولكن شفتيه ممدودتان قليلًا إلى الأمام بشيء من الدهشة.

ينتبه جمال فيضع الهاتف على المكتب ويجذب الكمامة على أنفه وفمه ثانية وهو يجيب طارقَ بابِ غرفة الكشف:

- تفضل.

يظهر رجل في الخميسين يدخل على عجلة ونصف فمه ساكن ونصف شفته ترتعش وهو يشير إليها بسبابته قائلًا:

- نصف وجهي مخدر تمامًا أيها الطبيب.

فيومئ جمال برأسه موافقة ويسبقه إلى غرفة الكشف وهو يقول:

- عظيم، تفضل.

يدخل الرجل ويتبعه جمال بجدية...

***

رولا تسير في الردهة المقابلة لأول الممر المؤدي إلى المكاتب تطل بترقب وهي تروح ذهابًا وجيئة ويتدافع المتواجدون في المكان على الردهة للمرور من خلالها إلى المقهى يبدو أنه وقت الراحة في منتصف العمل وتظهر من بعيد أحلام فتتوقف رولا مكانها وعينها على أحلام التي ما إن تقترب من رولا حتى ترسم ابتسامة على شفتيها ولكن بعينها عتاب على رولا يغلبه لطف كبير يغطي على طبعها في تعاملها مع الآخرين فتتوقف قبالتها.

أحلام: منتظرة مارك؟

فتهز رولا رأسها برقة وعلى استحياء تجذب يد أحلام ويتوجها إلى المقهى فتجلسا متقابلتين

تترقب كلٌّ منهما بدء الحديث الذي تسبقه نظرات العتاب من جانب أحلام والأسف والحرج من جانب رولا.

رولا: فكرت في حديثي الأخير معك بخصوص الحب وفكرة أن أتقبل حب شخص من غير ديني!

قاطعتها أحلام لرفع الحرج قائلة:

هذا موقف وقناعة لدى الكثيرين ولا ألومك عليها بل على إنكارك هذا على والدي مارك في حين لديك الموقف نفسه تجاه بعض من يختلف معك في انتمائه الديني والعقائدي وحتى توجهه السياسي!

هل نحن نتقاتل على الشيء ونقضيه يا رولا حسب مصالحنا نحن!

- وهل هذا ينطبق على موقفي مع والدي مارك؟

صمتت أحلام ولم تكمل حديثها في ذلك الموضوع حتى لا تغضب رولا المقدمة على الزواج قريبًا والتفت أحلام ونادت على النادل، فأجاب من فوره:

- تفضلي.

ونظرت لرولا لتخبره ماذا ستطلب ولكنها شردت بعيدًا لحظات، فنظرت أحلام إليه وقالت فنجاني قهوة فرنسية؛ فتنبهت رولا وابتسمت في حرج!

***

وقف جمال يتأمل نفسه أمام المرآة كمن يتناول حديثًا مطولًا مع عينيه، ابتلع ريقه وهو يبتسم على استحياء وعينه قلقة قليلًا ثم استدار هاربًا مما يطل من عينه!

فتح باب خزانته وعلق معطفه مكانه واستدار وظل مكانه يحملق في المرآة من بعيد وهو يغالب فرحة تتدفق بداخله ويتنهد مبتسمًا ويستسلم لخاطر ثابت بداخله ويواصل تبديل ملابسه في انسجام وهدوء قبل أن تفتح نهى الباب بعد طرقة واحدة يلتفت على إثرها جمال بتردد ناحيتها وهو يهرب بعينيه منها!

نهى تدلف إلى داخل الغرفة تتمايل أمام المرآة بدلال وغواية وهي تنظر إلى جمال من خلالها فيبتسم لها بدوره ثم يخفي وجهه في البجامة وهو يهم بارتدائها.

(٤)

أحلام تنكفئ على مكتبها مستغرقة في عملها ويمر وقت طويل على وضعيتها على ما يبدو فترفع رأسها بامتعاض متألمة تحرك رقبتها يمينًا ويسارًا برفق وتغمض عينيها المتعبتين وهي تتنهد بثقل وتثبت عينها إثر خاطر داهمها فتقاومه بحزم وتواصل عملها في جدية ويلمع في عينها أسى وضيق فتنهض وتغادر غرفة المكتب.

تقف في الردهة تتنفس الصعداء وتسير لآخر الممر في وجهة معينة وتتجه يمينًا إلى المقهى ثم إلى الحديقة الخلفية الصغيرة للمبنى وتقف في جانب منها تتنفس بعمق وسط نسمات الهواء القادمة من اتجاه الشجيرات المورقة وأريج الزهور المتفتحة على فروعها تتنفس الهواء بلهث وتتنقل ببصرها بين أفرع الأشجار والأغصان كمن يود أن يختبئ بين الأوراق، تهرب من الخاطر المسيطر عليها منذ فترة وتدفع بنفسها إلى العمل دفعًا ليسلب كل حيواتها ولا يبقى للخاطر من قدر يتعايش عليه، تدفع بنفسها إلى أعلى مستويات من الإرهاق حتى لا يبقى أمام نفسها إلا الراحة وكتم الخواطر في دُوامة التعب من العمل فالعمل علاج شاف للوحدة والحيرة والأزمات النفسية أحيانًا ولكنه أبدًا لم يكن ذا جدوى أمام الشعور بالحب بل على العكس الحب هو ما يبدد التعب ويزيح الهموم ويجلب السكينة

والأمان ويستدعي في أنفسنا السرور والفرح، ولكنها عزمت على المقاومة واستسلمت لعناء العمل الطويل!

***

يطول صمتها وسط ترقب كريم أن ترد عليه فيكرر عليها وهو يقف أمام باب غرفته: أمي!

ثم صائحًا وبذهول:

- أمي! وهو يلوح لها بإحدى يديه ليلفت انتباهها غير أنها في عالم بعيد... بعيد.

- لِمَ تصيح!

وباستياء هل تراني صماء يا ولد!

يرتبك كريم ويخفض بصره في حرج متوقعًا أن تكون أمه منزعجة لأمر ما لا يعلمه فيترجل باتجاهها وهو يكرر سؤاله:

- عمي اتصل بي ليلة أمس ويريد أن يقابلني لأمر هام.

وبذهول وضيق:

- لقد أخبرتني بهذا!

يوقن أنها لم تسمعه مطلقًا وقد بلغ بها الشرود والضيق مبلغًا فيجلس أمامها ويعيد كل ما قاله:

- أمي، عمي اقترح عليَّ أن أذهب لقضاء الإجازة عنده!

تنتبه أحلام لما يقول فترد بانفعال وضيق بالنفي:

- لا تذهب إلى هناك، يكفيه منك أنك تعامله تلك المعاملة بعد كل ما صدر منه بحقنا!

تأملها كريم بفضول وقلق، وأردف:

- أبلغته بهذا.

- ماذا قلت له؟

- أني لا أستطيع ترك أمي لوحدها.

تبتسم أحلام وتربت على كتفه بقوة وحب وتخفض عينيها بتوتر وتستأذن منه وهي تتجه إلى غرفتها:

- أشعر بإرهاق سأدخل لأستريح.

- التعب واضح عليك؛ فانتبهي لنفسك ولا ترهقي نفسك في العمل.

- العمل لا يرهقني يا كريم. العمل هو الراحة من كل تعب.

كريم ينظر إليها بقلق:

- تصبحين على خير!

- وأنت بخير!

تتمدد أحلام بعناء في فراشها ورأسها مثقل بالأفكار ونفسها بالخواطر تحاول الاستسلام للنوم الذي لا يقترب من عينها.

تتنهد بضيق وتتمدد في مكانها وتجذب الغطاء على كتفها استعدادًا لمجيء النوم عسى أن يغلبها وينقطع سيل خواطرها وأفكارها ولكنها تظل

تتقلب في مكانها وقد سيطرت عليها حالة من الأرق والضجر فتزفر بضيق وتغلق عينها بثقل.

***

ليليان قادمة في أول الردهة المؤدية إلى المكاتب بقوامها الفارع تسير في شموخ بأناقتها المعهودة تبتسم باقتضاب وعيناها الواسعتان تمتلئان بالخواطر المتضاربة فتستوقفها ليليان:

- أحلام، صباح الخير!

تتوقف أحلام وتبتسم في رقة وتحفظ:

- صباح النور.

- ما بك؟

- لا شيء! أنا بخير.

- تبدين متعبة والأرق بادٍ عليك!

أحلام تتأملها باستغراب في صمت، تبتلع ريقها بصعوبة وهي تزفر بضيق وحرج ثم تقولها بلا مقدمات ومباشرة:

- أود الحديث معك بخصوص عزيز هل يمكن أن نجلس معًا وقت الاستراحة في المقهى؟

تنصت أحلام ولا تستغرب أو تبدي شيئًا وترد على الفور:

- ولكني كما ترين متعبة وأكلني الأرق ليلة أمس ولليال متوالية!

تتفحصها ليليان بفضول متسائلة:

- وما السبب، لقد تأثرت بشرتك وهيئتك أيضًا!

في انزعاج:

- وهيئتي!

بتردد وحرج:

- أقصد أنك في غير حالتك المعتادة فقط!

بود وتفهم محاولة إنهاء الحديث:

- نتحدث وقت الاستراحة.

بامتنان تومئ بلطف مبالغ فيه:

- ستجدينني في انتظارك.

تبتسم أحلام وتمضي في وجهتها إلى مكتبها في حين تواصل ليليان سيرها قُدمًا إلى آخر الردهة ثم تنحني إلى الممر الثاني المؤدي إلى الطابق الثاني المخصص لانعقاد الاجتماعات والاحتفاليات.

تستقر أحلام على كرسيها منزعجة وهي تسترجع وصف ليليان لحالتها فتنظر أمامها بحنق وتوتر وتطرد الفكرة في لامبالاة وتهم في بدء عملها.

***

صوت بكاء طفل صغير يتردد في أرجاء المكان وأبوه الذي يحمله يحاول تهدئته بلا جدوى تظهر شابة عند باب غرفة الكشف تخرج صامتة مستسلمة لألم عابر فتحمل الطفل عن أبيه ويخرجان معًا من باب العيادة لتنادي السكرتيرة على اسم آخر فيتأهب للدخول في دوره...

جمال يقف بجوار الجهاز في حالة تأهب وهيئته توحي بالذبول ووجهه عابس!

أحد المرضى ينادي عليه من خارج غرفة الكشف فيرد جمال بصوت أجش حاد:

- تفضل، تعال!

فيتجه المريض ناحيته مباشرة عابرًا الباب المفتوح المؤدي إلى الغرفة حيث ينتظره جمال فيجلس الرجل قبل أن يسمح له جمال ثم يشكو فيطل جمال في وجهه منصتًا واجمًا.

(٥)

بينما تداعب والدة نهى منة تأتي مي بدميتها من الداخل وتهرول باتجاه الجدة وهي تنظر إلى منة بلوم:

- جدتي، منة قصت شعر دميتي ومزقت فستانها بالمقص ورسمت بالقلم الأسود على وجهها!

الجدة تتأمل الدمية باستغراب وقد أفسدت منة وجه الدمية وشوهتها برسم حاجبين عريضين غير متساويين لها ورسمت دوائر متداخلة على خديها كما مزقت بالمقص جدلتيها!

التفت الجدة إلى منة بعتاب وهي تقرب وجه الدمية ناحيتها قائلة:

- لم يا منة!

- إنها مي من فعلت، أنا قمت فقط بقص الشعر.

- والرسم، أأنت من رسمتِ يا مي؟

أومأت مي برأسها وهي تتأمل وجه الدمية باستغراب يبدو أنها وهي تمسك بقلم الألوان لم تتخيل أن تكون النتيجة هكذا!

- ولم قصصتِ شعرها يا منة؟ كانت أجمل بشعرها الطويل!

بادرت منة بالتعليق: أنا من قلت لها أن تقصه.

فتبسمت الجدة بحيرة وأردفت قائلة بنبرة تأكيد وهي تداعب بكفها شعر منة:

- الشعر الطويل زينة البنات والدمى مثل البنات! لا تقصي شعر دميتك.

منة تبتسم في حرج وهي تخفي وجهها من مي في صدر الجدة التي تحتضنها بحنو بالغ في حين تجذب مي وتقربها إلى حضنها وتقبلها على جبينها.

خرج جمال ثانية من الداخل باتجاه الصالة مرحبًا مجددًا بجدة الطفلتين التي ترمقه بنظرات الود والمحبة وتتلاقى أعينهما فيبتسم جمال مرحبًا بها:

- كيف مرت الشهور لم أرك، أنا مقصر بشدة في حقك؛ أنا آسف!

تقاطعه متفهمة وتتأمله بمحبة وود:

- أعانك الله أنا أعرف طبيعة عملك وقدر انشغالك يا بني!

مبتسمًا يرمقها بمحبة عميقة:

- رأيت عمي من أسبوع وسألته عنك للاطمئنان.

- أخبرني.

- تحياتي له وسلامي!

- أوحشتنا يا جمال تعال أنت ونهى والبنات نوروني الجمعة القادمة.

- سأحاول.

الجدة بعتاب: توقعت أن توافق خاصة وأن الجمعة يوم إجازتك وإجازة البنات من المدرسة أيضًا.

نهى تأتي من الداخل وهي تنظر إلى جمال بلوم مكتوم وترسم ابتسامة وتشاركهم الحديث.

الجدة لنهى: هل توافقين على قضاء يوم الجمعة معنا يا نهى أنت وجمال والبنات؟

نهى بحزم: أكيد.

ثم تنظر إلى جمال بترقب تنتظر رده؛ فيبتسم في هدوء معهود، وينظر إلى مي ومنة الرابضتين في أحضان الجدة ويقول:

- وهل ستأتين يا منة معنا؟

فترد مي على الفور قبل منة:

- نعم، ولكن لن نأخذ منة معنا.

ونهى والجدة تراقبان البنتين في محبة ودهشة!

تقاطعها منة قائلة:

- أنا سأذهب مع جدتي وأتركك هنا بمفردك.

وينفجر الجميع ضحكًا، ثم تنهض نهى من مكانها وتتجه إلى المطبخ، ويتجه جمال والجدة وخلفهما البنتان يتوجهون إلى السفرة وتواصل نهى وضع الملاعق والشوك في طبق صغير وتضعها على جانب المائدة بجوار الطعام، ثم يأخذ كل مكانه ويبدأ في تناول طعام الغداء في جو أسري دافئ.

وكعادة الطفلتين بعد تناول الغداء تلهوان بالألعاب في غرفتيهما وتقف نهى في المطبخ تفرغ الأطباق وتساعدها الأم وتتحدثان في المطبخ وبعد صمت مفاجئ تبادر نهى بتكرار جملتها ثانية وسط مراجعة الأم وأضعاف الفكرة لديها:

- كما أخبرتك هناك امرأة في حياته.

الأم: لا يوجد، كفي عن شكك في زوجك لا تطيعي أوهامك وشكوكك.

بتأثر وتلمع دمعة في عينها؛ فيهفو قلب الأم؛ فتضع الأطباق جانبًا قائلة:

- يا نهى، جمال يعاملك أفضل مما يعاملني به أبوك؛ هادئ ومهذب، ولم يوبخك يومًا على خطأ فعلتِهِ وكما رددت عليَّ وقلت العلاقة الخاصة بينكما لم تتغير أو تتأثر بما يهيئه الشيطان في رأسك ناحية زوجك فلم كل هذا القلق والضيق يا ابنتي!

- لم تتغير معاملته لي يا أمي، ولكن إحساسي... إحساسي يقول لي إن في حياته امرأة أخرى

هذا الإحساس لا يأتي من فراغ!

- شكوك وأوهام وظلم للرجل!

نهى بنفاد صبر وتأثر:

- لستُ غبية لأعكر صفو حياتي بيدي!

علقت أمها وهي تستبشر خيرًا بحنو وحزم:

- إذن اطردي هذه الأفكار وانتبهي إلى نفسك وبيتك ولا تسمحي للأوهام أن تجعلك شاحبة كهذا!

- أأنا شاحبة؟

- وكوردة ذابلة أوراقها مصفرة!

تخفض نهى عينيها بتأثر وتردد تجاه ما في خاطرها وذهنها، وتربت الأم على كتفها بحنو وتنظر في عينيها بحزم وهي تهز رأسها بزجر وحرص، فتنظر نهى في عيني أمها باستبشار مشوب بقلق، متداخلًا صوتها مع صوت منة ومي تلهوان وجمال يمازحهما ويضحك، حتى يتناهى صداه إلى أسماعهما داخل المطبخ فتلتفتا باتجاهه.

***

جمال يدخل من باب العيادة وعلى غير عادته يدلف إلى داخل غرفة الانتظار وينظر في وجوه الزبائن فتنادي السكرتيرة من مكانها:

- أنا هنا أيها الطبيب فيلتفت ناحيتها بحرج ثم يلتفت ثانية للمتواجدين في الغرفة ويلقي تحيته المعهودة مساء الخير، فتجيبه أصوات بعض المتواجدين في نبرة صوت متفاوتة بمساء النور...

وينظر إلى السكرتيرة التي تتأمله بفضول ودهشة فيقول لها مفتعلًا حديثًا:

- فني المعمل اتصل؟

فتهز السكرتيرة رأسها بالنفي، ثم قالت:

- ولكنه كان هنا أمس أيها الطبيب.

- هل أخبرك أنه سيأتي هذا الأسبوع؟

بتردد ويرد وهو يتجه إلى غرفة الكشف:

- تقريبًا!

تجلس السكرتيرة مكانها وتمسك بالكشف تارة وتطالع وجوه المتواجدين تارة أخرى استعدادًا لبدء يوم عمل جديد، في حين وجوه الموجدين تتطلع ناحيتها في انتظار أن تنادي أول اسم للدخول إلى الطبيب.

جمال يجلس إلى مكتبه ويجذب كمامة جديدة وقبل أن يضعها على وجهه ينظر الهاتفَ بحيرة وترقب ثم يضع الكمامة في استسلام وتململ!

طرقة خفيفة على باب غرفة الكشف فيهب جمال واقفًا وهو يقول في نبرة صوت معتادة:

- تفضل!

وينفتح باب غرفة الكشف ليظهر رجل متقدم في العمر محتقن الوجه من فرط الألم فينظر إليه جمال مشدوهًا بتعجب ثم بتأثر ويسبقه إلى غرفة الكشف في آلية ويلحق به الرجل مباشرة.

***

نهى تسير في صالة بيتها ذهابًا وجيئة وهي تنظر في ساعة يدها تارة وإلى ساعة الحائط تارة أخرى وهي مترددة وقلقة، ثم تقطع على نفسها ما فيه من

حالة غير مريحة وتدلف إلى خيال يجعلها تبتسم وتنبسط أسارير وجهها فتشرق ابتسامة على شفتيها وهي تتنهد في هدوء وتعاود السير ثانية وثمة ما تسترجعه فيتهلل وجهها وتغمض عينها بأريحية وفرحة، ثم تتجه مباشرة إلى غرفتها تعبر الباب وتفتح الخزانة وتدفع بيدها الشماعات فيقع بصرها على فستان في أوسطها فترفعه وتدفع به إلى حافة السرير وتهم بتبديل ملابسها وارتدائها وفي السرعة ذاتها تضبط شعرها ثم تضع لمسات من المساحيق على وجهها وتحمل حقيبة يدها بعد أن تدس داخلها ورقة بيضاء ثم تخرج من باب الشقة.

***

تقف أحلام على آخر سلمة تؤدي إلى باب عيادة جمال تتنهد بسرعة وعينها تزدحم بالخواطر ووجهها يتلألأ بالفرحة والارتياح وتدلف إلى داخل غرفة الكشف تلقي التحية ويرد بعض المتواجدين ممن انتبه إلى دخولها وتتجه مباشرة إلى مكتب السكرتيرة وتمد يدها بالورقة التي وضعتها في حقيبتها قبيل خروجها من بيتها فتنظر السكرتيرة فيها وتدون اسم أحلام وتنظر في الورقة ثم لها قائلة:

- قبلك سبعة أسماء.

فتومئ أحلام في تفهم وتبحث عن مكان لتجلس فتجد كرسيًّا فارغًا بجوار سيدة كبيرة في العمر تبدو شديدة العناية بذاتها وأقرب مقارنة بعمرها إلى متصابية، فتجلس أحلام بجوارها في هدوء فتحاول السيدة

المتصابية الدخول مع أحلام في حديث ليست المعنية به ولكنها تريد أن تتحدث إلى أي أحد والسلام، تريد أن تتحدث فحسب! التفت السيدة ناحية أحلام واعتدلت لتكون في مواجهتها متسائلة:

- هل الطبيب هذا ماهر في عمله؟

فنظرت إليها أحلام بارتباك فوجدت أن حالة التأهب التي شرعت فيها السيدة المتصابية تنبئ عن حديث طويل سيحدث فأرادت أن تنهيه برد مقتضب فقالت:

- لا أعرف، ولكن يبدو أنه بالفعل ماهر في عمله وطبيب حاذق!

فبادرت السيدة بسؤال جديد وعيناها تلمعان بالنباهة والذهن اليقظ وأنا أود في الانفراد بنفسي حتى يحين دوري في الدخول:

- منذ متى وأنت تقصدين عيادته؟

- من ثلاثة أشهر تقريبًا.

فتأملتني متفحصة ووقعت عيناها على فمي تحديدًا ثم قالت:

- ولم تعاودك آلام أسنانك مجددًا؟

فابتسمت وأنا أحاول أن أوضح لها أمرًا:

- إنه ضرس واحد الذي كان يؤلمني وقد عالجته لدى الطبيب.

- ولم أنت هنا اليوم إذن، هل فاجأك بتجدد الألم به أم بوادره في آخر؟

بهتُّ من سؤالها وابتلعت ريقي بعناء ثم قلت:

- من الضرس نفسه لأني لم أنهِ علاجه تمامًا.

تفحصتني بدهشة لما بدت إجاباتي عن سؤالها متناقضة ورغم حرجي وتلعثمي في الرد إذ سألتني لم جئتِ إذن وأنا نفسي لا أعرف لم جئت وموعدي كان الأربعاء الفائت! وها نحن في سبت الأسبوع الجديد وتمنيت من داخلي أن تكون إجاباتي تدفعها إلى الحديث مع غيري وتوجه له أسئلتها المتدفقة!

سادت لحظات صمت كانت فرصة لاسترجاع حديثي الأخير في الهاتف مع جمال وهو يخبرني أن الطربوش جاهز ويؤكد على وجوده فأخبرته أني سآتي يوم الأربعاء، ترى هل انتظرني أم أنه تصرف في مثل هذه الحالات كأي طبيب يخبر مريضته! لا أدري ولكنني استشعرت... استشعرت...

تنهدت أحلام بضيق والتفت جانبًا فوجدت السيدة المتصابية شاردة بوجه محتقن بالغضب والأسى ولكن فوجئت من صمتها التام أمام رغبتها العارمة في الدخول في حديث معها من دقائق مضت وبالكاد لم تكمل أحلام تعقيبها على صمتها حتى سمعتها تتحدث مجددًا ولكن هذه المرة ليس بسؤال السيدة المتصابية وكأنها تحدث نفسها بأسى فتخص أحلام بحديثها:

- لم يقضِ على أسناني ويداوم على تجدد الألم كالفكر الثقيل والهم المتجدد ومخاوفي المستمرة من الوحدة كلها استهدفت أسناني!

فالتفتُّ ناحيتها بترقب واهتمام فقد بدا كلامها عميقًا وأنها ما تتحدث ثرثرة ولكن رغبة في البوح والاستئناس لمست رغبتها في الحديث معي أو مع غيري فبادرت أنا تلك المرة فسألتها:

- وما علاقة الوحدة بآلام الأسنان، ولم تخافين منها؟

- أنا بالفعل وحيدة ولكني أكذب على نفسي وأدفعها عني متخيلة أنها غير موجودة، هي تشاركني أنفاسي ومسكني وسريري وأكواب الشاي وفناجين القهوة، وملابسي أيضًا!

تأملتها بدهشة أخفيتها بابتسامة لا معنى لها! ولم أجد ما أقول لا أدري لم مستني كلماتها تلك ولكنني توقفت عن الأسئلة ولم أطرح جديدًا فعادت إلى الصمت فوجدت أنه من الأنسب أن أتحدث معها ولو فعلت مثلها ولاحقتها بالأسئلة المهم ألا أدفعها إلى الصمت الذي تتهرب هي منه:

- هل تعملين؟

فابتسمت السيدة ابتسامة عريضة وتهلل وجهها وردت قائلة بنبرة صوت عذبة ودافئة -إنه حقًّا الحديث عما نحب يؤثر في نبرات صوتنا ويحولها إلى أنغام جميلة!-:

- نعم، مدرسة تربية فنية في مدرسة ثانوية للبنات، وكانت أروع مراحل حياتي وأبهى لحظاتها وأنا أتوجه صباح كل يوم إلى المدرسة وأنا أجلب معي من البيت أنشطة قمت بعملها في بيتي بنفسي لأريها لطالباتي

اللاتي كن يتعجبن كثيرًا ويعجبن بكل لوحاتي وقطعي الفنية التي أبتكرها، ذات مرة صنعت سمكة ملونة يصل طولها مترًا!

ابتسمت لها وأنا أبدي إعجابي وتقديري بما ترويه، فأشرقت ابتسامة مضيئة على وجهها استشعرت أن تلك العيون لفتاة في الثامنة عشرة فقط لما انعكست فيهما من حيوية وبهجة ولما تمدد بصوتها من دفء ومرح ودلال وهي تخبرني عن أعمالها الفنية وعملها والأنشطة التي قامت بها ما أروع الحديث عن الذكريات السعيدة التي تجدد فينا معاني التفاؤل والفرح وتمنحنا السرور!

استطردت السيدة:

- إحدى طالباتي وعدد منهن على سبيل المجاملة أخبرنني أمنياتهن بأن يصبحن مدرسات ليعلمن الطلبة الرسم وصنع المشغولات والتحف الفنية اليدوية، ثم تنهدت ولمعت عيونها بالزهو والفخر وقالت في ثقة:

- لم تكن مجاملة! فقد تخرجت اثنتان منهن وصارتا بالفعل مدرستي تربية فنية ولا أدري عن البقية ماذا صرن فأنا بالطبع لا أتمنى أن تكون أيٌّ منهن إلا ما تحب ولا يسعدني بالتأكيد أن تكون مثلي لمجرد إعجابها فقط بي.

وانتظرت تعقيبي على كلامها الأخير فأومأت موافقة لما تقول، إنها تسرد جانبًا من حكايتي ولا تدري، فابتسمت بإيماءة برأسي في تشجيع وتأكيد لما قالت، داخلتها حالة من النشوة لمجرد أنها تفتح حديثًا تسترد فيه لحظات سعادة لأيام مضت كيف نوجد هذا الشخص خارج إطار الصدفة،

ذلك الشخص الذي يدفعنا لاسترداد لحظات بهجة لمواقف وأيام ولت بلا رجعة لننعم بها معتَّقة في أذهاننا نقتات منها في أيام خالية من مسبباتها في حينها:

- قبل بلوغي سن المعاش لم تكن أسناني تؤلمني قط، ولا تسأليني يا... ما اسمك لقد فاتني عن غير قصد أن أسألك عنه معذرة!

ابتسمت متفهمة وبكل ود أخبرتها أحلام عن اسمها وقامت هي بدورها بتعريف نفسها:

- وأنا اسمي "مسز فوزية".

فابتسمت لتعريفها اسمها بربطه بمهنتها فعلى ما يبدو هي تقصد بمسز ما كان ينادونها به طالباتها كما فهمت كانت تعمل مدرسة تربية فنية.

أومأت أحلام مرحبة بها تبدي ابتهاجها بمعرفتها وكانت السيدة في حالة أفضل مما بدت عليه في أول الحديث فظنت أحلام أنها اكتفت بالحديث الخاطف عن حياتها ولكن يبدو أن في جعبة السيدة فوزية الكثير لتتحدث عنه ولكني خشيت أن يتجاوزني دوري في الدخول فالتفت من حولي فوجدت نصف عدد الموجودين قد انصرفوا فتنهدت بارتياح إذ لم أجد نفسي والسيدة بمفردنا أو أن دوري قد فاتني!

ثم خلت العيادة إلا منا كما لمحت السكرتيرة تتحدث إلى مساعدة الطبيب أمام باب العيادة من الخارج وهي تناولها بعض الأغراض التي دخلت بها السكرتيرة ووضعتها في جانب ثم عادت لتجلس في مكانها

مجددًا، لاحظت السيدة جولتي التفقدية في أرجاء العيادة وهي تبتسم بود فابتسمت لها بتشجيع عسى أن تواصل حديثها وبدورها لم تفوت الفرصة فسألتني ماذا تعملين؟

- مترجمة بالمركز الثقافي الفرنسي وصحفية.

تهلل وجه السيدة وقالت صائحة بابتهاج:

- والله، جميل جدًّا!

فابتسمت أحلام في ود؛ فأردفت السيدة:

- إنك تطالعين الروايات الأجنبية التي تقومين بترجمتها بالتأكيد مما يجعلك تمرحين في خيال خصب وأجواء متجددة من البهجة والمتعة.

- كيف عرفتِ!

قالتها بتأكيد لكل ما قالت ووصفت؛ فضحكتا معًا في اللحظة ذاتها وربتت بعفوية على يدها وهي تضحك من قلبها:

- تشرفت بمعرفتك!

- وأنا والله يا "مسز فوزية"!

يدها تحت كف السيدة تقول قبل أن ترفعها في هدوء:

- من المدهش والرائع كما قلتِ أن يعمل الشخص ما يحب!

فأومأت برأسها موافقة وشرعت تواصل حديثها:

- آلام الأسنان لا علاقة لها بعمر أو بسن معاش أو بتقدم في العمر، أنا من قمت بهذا الربط لفرط حساسيتي من مكوثي بمفردي في بيتي بعد زواج

ابنتي ثم لحق بها أخوها وبقيت وحدي بلا أحد حتى سلوتي الوحيدة بعدهما قد غادرتني ببلوغي سن المعاش وعدم الذهاب إلى المدرسة ولقاء زملائي والطالبات. أضعفت الوحدة مناعتي وتآكلت أسناني مثلي تمامًا، غير أني أقاوم كما ترين؛ فأفرض لون شعري لا أتركه على لونه الذي صبغته سنوات العمر، ولا أقتنع باتجاه تتخذه أخريات بارتداء ملابس بألوان تناسب العمر لا أقتنع بهذا القول ولا أعمل به، أنا أحب الألوان الزاهية من صغري كما ترين، سترة برتقالية مثل ثمرة ناضجة من البرتقال وتنورة خضراء داكنة مثل الفرع وكأنني ارتديت البرتقالة بقشرها وهي على الشجرة؛ فابتسمت لوصفها كما ضحكت هي من قلبها مجددًا، وقطع لحظتنا الجميلة صوت السكرتيرة التي نادت قائلة:

- مدام فوزية محجوب؟

فنهضت من جانبي السيدة فوزية وهي تغمرني بنظرات الود والمحبة ولأول مرة أود لو لم يقترب دوري وألا تتوقف عن الحديث ويحين موعد دخولها للكشف.

ربتت السيدة فوزية على يدي بامتنان:

- سعدت بمعرفتك أستاذة أحلام!

تحركت أحلام في مكانها وهي تربت هي الأخرى على يد فوزية وتتأملها بود:

- وأنا سررت جدًّا بمعرفتك "مسز فوزية"!

تحمل فرحة على وجهها وتمضي متجهة ناحية غرفة الكشف وأحلام تنظر إليها في محبة إلى أن دخلت فتغمض عينها ويداخلها شعور تمنت لو طال الحديث مع السيدة فوزية مدرسة التربية الفنية.

تتنهد أحلام وهي تحاول وصف ذلك الحديث وهي تسترجع ما أدهشها؛ تتسع حدقة عينها وهي تتوقف أمام بعض عبارات قالتها السيدة فوزية وعينها تفيض دهشة وتساؤلًا، ثم تزيح الخواطر المزدحمة وترجئها لما بعد كما يروق لها وترى أنه من الأنسب الآن أن تتأهب للدخول عند جمال فتبتسم بفرح وهي تتنهد بارتياح ولهفة وتتجنب ضبط هندامها تحرجًا من السكرتيرة ورجلين يجلسان بجوارها في الانتظار، وتحاول أن تستجمع نفسها وترسم تعبيرات ثابتة على وجهها ولكن تنطلق منها ابتسامة مشرقة تضيء وجهها وتهم برفع مجلة من أمامها على المنضدة الصغيرة؛ فتفتحها عند منتصفها وتنظر فيها لا تقرأ ولا تقصد شيئًا بعينه، ولكنها تكتفي بابتسامات تهل على محياها لسبب تراقبه عيونها المليئة باللهفة وتعجل بالدخول، تقطع عليها حيرتها السكرتيرة وهي تنادي:

- مدام أحلام ضياء الدين؟

وقفت مكاني وأنا أبتلع ريقي ثم ملت ناحيتها وأخذت منها الروشتة واتجهت لغرفة الكشف طرقت الباب ودخلت.

رأيت جمال جالسًا مكانه والكمامة على وجهه، تهلل وجهه فما إن رآني حتى هب واقفًا ثم تظاهر بأنه يرفع شيئًا من على حافة المكتب أمامه بعيدًا عن متناوله.

أحلام تقف مكانها تتأمله بلهفة وارتباك وترتعش شفتاها لا تتمالك نفسها، يتوقف جمال عما يقوم به ويتقدم خطوات باتجاه أحلام التي تقول:

- مساء الخير أيها الطبيب!

- مساء النور يا مدام أحلام، تفضلي حضرتك!

أحلام تتهرب بعينها وتطأطئ رأسها وتدخل ثم تتوقف ولا تجد ما تقول وجمال خلفها ينظر إليها وهو ثابت في مكانه لا يجد هو الآخر ما يقول، نبضات قلبه في تسارع وعينه تفيض لهفة وفرح يقشعر جبهته في انتشاء وهو يرمقها بنظرات متفحصة على استحياء شعرها المرسل وقوامها النابض بالشباب والحيوية، تلتفت أحلام فتتلاقى أعينهما فيرتبك لما تحمله عينه من معاني فيستجمع نفسه ولكنها تذهل مما تعكسه عينه فتبتسم وبنبرة هادئة:

- لم أتمكن من المجيء يوم الأربعاء كما قلت لك في الهاتف.

بتفهم ويهز رأسه بترقب وهو ينظر في عينيها بإعجاب مبتسمًا ويحاول الهروب من النظر فيهما فيلتفت ناحية الأرف المتراصة بعضها فوق بعض تحوي أدواته ويحدث جلبة بفتح درج وإغلاقه ثانية لفتح آخر وأحلام في ذهول وارتباك تقترب من الجهاز وتستقر عليه ويلتفت جمال فجأة فيجدها

قد انتقلت إلى الجهاز فيرخي الكمامة على أنفه وفمه وفي آلية يتقرب منها وفي يده الطربوش، تتحاشى أحلام النظر إلى عينيه فتنظر أمامها.

جمال وهو يقرب الطربوش ليكون واضحًا أمامها:

- ها هو الطربوش يا مدام أحلام.

فتومئ برأسها دون النظر في عينه وتفتح فمها في استسلام؛ فيقترب جمال ويضع الطربوش فوق ضرسها المحشو ويقوم بتثبيته بالمادة اللاصقة المخصصة لتمكين الطربوش فوق الضروس، ترفع منديلًا وتمسح فمها وتبادر باستفسار:

- هل يمكنني الأكل وتناول مشروب اليوم عليه؟

- طبعًا، ولكن يفضل بعد مرور ساعتين على الأقل من الآن.

- شكرًا أيها الطبيب!

- ألف سلامة!

تبتسم أحلام وتنهض من جلستها وتلحق بجمال الذي ترجل خارجًا إلى مكتبه من غرفة الكشف.

جمال يجلس خلف مكتبه وقد رفع الكمامة من طرف واحد ويترقب ظهور أحلام خارجة من الغرفة يتهلل وجهه مجددًا ويود لو تبقى وتشرع في طرح أسئلة ولكنها تنظر في عينه في حيرة وترقب ثم تستأذن:

جمال وكأنه يوقفها ويمنعها من الذهاب:

- مدام أحلام؟

تلتفت أحلام بهدوء وتأثر ربما لأنها ستمضي في كلتا الحالتين وتغادره!

- نعم!

- انتبهي جيدًا!

فتنظر إليه أحلام مشدوهة متعجبة؛ فيرتبك وهو يهيم في عينيها بلا توقف وبكل ثبات:

- أقصد لو شعرتِ أن الطربوش يسبب لك أي ضيق يمكننك المجيء فورًا وسأقوم بتغييره!

فتطيل النظر في عينيه رغم ارتباكها البادي عليها:

- لن يضايقني.

- أقول لو حدث.

- وهل لا أعود إلى هنا إلا إذا ضايقني طربوش الضرس! قد يؤلمني ضرس غيره.

مقاطعًا ويبادرها على الفور: سلامتك! لالا انتبهي لأسنانك.

ومردفًا: لا أقصد، أخبرتك فقط.

تبتسم أحلام بعذوبة وتقولها مباشرة بلا مقدمات:

- أيها الطبيب جمال؟

على الفور: نعم، يا مدام أحلام؟

فيبتسمان معًا فتقول:

- إذا دعوتك لحضور حفل قريب في محل عملي فهل ستوافق؟

يتهلل وجهه ويسألها بفضول:

- فيم تعملين؟

- هي احتفالية سنوية للاحتفال بتأسيس المركز الثقافي الفرنسي في مصر.

يسمعها باهتمام وترقب.

أحلام مردفة:

- أنا أعمل هناك مترجمة ومراسلة وصحفية.

مندهشًا ويبتسم بود:

- بكل سرور يا أستاذة أحلام.

- أنا أم للشاب الذي جاء معي أول مرة وأرملة من ثماني سنوات.

ينصت إليها عن كثب ويبتلع ريقه بفضول ويرتبك لما عرف ما كان يود السؤال عنه، تنظر أحلام في عينيه كمن يلوم نفسه التطرق بالحديث إلى تلك الزاوية من حياتها ولكن تنهدت الصعداء بعدما أخبرته، يرتبك جمال على إثر ما سمع رغم ظهور نشوة انتصار واطمئنان في عينيه، ثم تستأذن أحلام وتخرج.

يقف جمال مكانه مشدوهًا يغرق في خاطر يستولي على نفسه ويتملك منه فيبتسم في طمأنينة وارتياح وهو ما زال ينظر إلى حيث خرجت أحلام.

***

لا تصدق أحلام أنها قد وصلت إلى بيتها ليتسنى لها استرجاع ما حدث في فضاء نفسها بعيدًا عن صخب الخارج تتوقف عند الباب وهي تنظر أمامها وتدخل في حالة من النشوة والارتباك معًا وتتجه إلى غرفتها وهي تغالب فرحتها وعينها تمتلئ بالحيرة والقلق.

تتوقف في منتصف غرفتها تراجع نفسها فيما قالت ترى أنه عليها ألا تذهب إلى هناك ثانية وتراجع نفسها متسائلة لم أخبرته أني أرملة من ثماني سنوات، وماذا سيقول عليَّ الآن! لم يكن من الصواب أن أتطرق بالحديث معه إلى حالتي الاجتماعية، هل تودينه زوجًا لك يا أحلام! كيف هذا وأنا لا أعرفه كما أنني لا أفكر في الزواج ولا الحب!

يستوقفها قولها ولا الحب... ولم لا، هل الحب جريمة، وهل هو يحبك، أم أنت من تحبينه! جمال رجل مهذب وناجح ولطيف ولكنني لم أفكر فيه مطلقًا فهو متزوج واضح من خاتم الزواج الفضة في يده اليسرى، وهل يظل شخص في مثل عمره بلا زواج! وإن كان فما شأني أنا به هو رجل متزوج، وإن لم يكن أنا لا أحبه هو مجرد طبيب الأسنان الذي قصدت عيادته عندما آلمني ضرسي، ولم تفكرين فيه باستمرار إذن، قد أكون معجبة به فقط أم أنه... ماذا! أنا مرتبكة حقًّا، وعلى كلٍّ لن أذهب إلى هناك مرة أخرى حتى لو آلمني أيٌّ من ضروسي مجددًا وفي أي وقت، ولكنك قد وجهتِ له الدعوة لحضور ذكرى تأسيس المركز ولم قلتِ له إنك تعملين مترجمة وصحفية! حتى لا يظن أني ربة بيت، أنا لم أتعمد إخباره بأيٍّ مما قلت

ولكنني استرحت بعدما أخبرته وأظنه كذلك؛ فقد استشعرت منه إعجابًا كبيرًا بي وقد رحب أيضًا بقبول دعوتي له! لكن، أيعني كل هذا أنه يحبك! الحب أمر مختلف، فيم يختلف! في أن امرأة بعمري لا زوج لها ولديها ابن وهو معجب بي! ثم ماذا تقصدين، أن يتقدم لطلبك للزواج!

تمسك أحلام رأسها براحتي يدها، تضم رأسها بحنو وكأنها تخشى انشطاره من كثرة الأسئلة، أنا لا أحب أن أكون في مثل تلك الحالة، أنا لا أبحث عن زوج ولا أريد أن أتزوج وتهم بخلع ملابسها في انفعال وسخط وتلقي بها على حافة سريرها وتخرج إلى الصالة فتجد كريم يدخل ويغلق الباب خلفه وينظر صوبها:

- أنا آسف يا أمي عن كل مرة أتخلف عن الذهاب معك إلى عيادة الأسنان ولكن رغمًا عني.

تتنهد أحلام على خلفية ما بها وترسم ابتسامة قائلة:

- لا عليك يا كريم، هل أجهز لك العشاء؟

- أكلتِ؟

- أخبرني الطبيب ألا آكل قبل ساعتين.

- وكم بقي على مرور الساعتين؟

- ساعة تقريبًا.

- لا بأس، سأنتظرك لنتعشى معًا. ولكن، هل عاودتك آلام أسنانك؟

- أبدًا، ولكني ذهبت اليوم لتركيب الطربوش فهو آخر خطوة لإنهاء ألم الضرس اللعين!

يبتسم كريم لوصف أحلام ويمضي متجهًا إلى غرفته، وتفتح أحلام التلفاز وتجلس في مواجهته بتدافعٍ كتدافع الخواطر إلى نفسها، ثم تهب واقفة كمن يفلت من عدو وتتجه مسرعة إلى المطبخ، تعبث في الأواني وتعيد ترتيب الأكواب في أماكنها ثم تنحني وتفتح الفرن ثم تغلقه وتتوقف مكانها وتتنهد بضيق.

(٦)

نهى تتأمل ظهر جمال العاري أمامها وهو يبادر بوضع سترة البجامة عليه عن أن يبقى بلا ملابس حتى الصباح ويجذب الغطاء فوقه ويستسلم لغفوة قبيل الاستغراق في النوم ممتدًا في مكانه بجوارها، في حين تلف صدرها بطرف الغطاء وهي تتأمله بترقب وريبة تحاول طرد هاجس يحاصر خاطرها ويلح على ذهنها فتنظر إلى جسدها تستحضر ما كان قبل لحظات بينها وبين زوجها وتضعه أمام الهاجس الذي يطاردها بشأن وجود أخرى في حياته، فهناك امرأة في حياته، ولكنه كما هو، إنه معي كما كان، كما هو منذ تزوجنا!

***

في الصباح عادت نهى بعدما أوصلت بنتيها إلى مدرستهما تحمل بعض احتياجات البيت تدخل مباشرة إلى المطبخ تضعها هناك وتعود.

تدخل إلى غرفتها تتحاشى فتح النور وتقف مكانها تنظر إلى جمال المستغرق في نومه في أجواء شاعرية دافئة تحيط بجو الغرفة في حالة من السكون والطمأنينة، تتملكها رغبة في تكذيب ما تحس به وتحاول مقاومة ما يدور في خاطرها تبدل ملابسها في ظلمة الغرفة وتصعد السرير وترتمي في أحضان جمال كمن يريد أن يتحقق من شيء، من كينونته معها ولها في

فراشهما، تحتضنه من ظهره وتلتصق به وتغمض عينها بارتياح هنا يفتح جمال عينه ويستشعر احتضان نهى له والتصاقها به فينظر بعين ناعسة لم يفق بعد ولكن يظل ساكنًا مكانه لا يبدي أي ردة فعل غير أن يعاود النوم.

***

تسير أحلام مع ليليان في إحدى ردهات المركز تتحدثان في ود وانسجام على عكس ما كانت علاقتهما معًا وكلماتهن المقتضبة، تتوقف ليليان عن السير وهي ترمق أحلام بامتنان قائلة:

- لم لا تفكرين في السفر إلى فرنسا في نزهة يا أحلام، أشك أنك لم تتمنها!

- فرنسا! وهل من أحد لا يود زيارتها!

أحلام ترتاب في حديث ليليان الودي المفاجئ إلى هذا الحد بأن تلوح لها بالسفر إلى فرنسا؛ فتجد أنه من الحكمة أن تنصت حتى النهاية لتعرف وبتريث تخفي فرحتها بما تقول ليليان فالكل يعلم عن تلك الأمنية ولكن من أين علمت ليليان تحديدًا وهي التي تحرص على أن تكون بعيدة عن كل العاملين في المركز باستثناء عزيز أبو الفتوح!

- أنت عائدة من هناك للمرة ال...

تقاطعها ليليان ضاحكة بغبطة:

- هذا من صميم عملي؛ فأنا أسافر للتنسيق بين مراكز الثقافة وترتيب أعمال البعثات والإشراف على توفر الشروط المطلوبة في الأماكن التي

سيقصدها المبتعثون والزوار التابعون للمركز وأصحاب العضويات، وهذا يختلف عما إن كنت أسافر برغبة مني.

تنصت إليها أحلام وهي تخفي تساؤلًا ملحًّا ودهشة من ليليان التي تستشعر ذلك فتصمت هنيهة وكأنها ترى أن كل تلك المقدمة تزيد من دهشة أحلام فتبادر مستشعرة ثقل ما ستقول على نفسها لما تجده مساسًا بها كونها امرأة وفي مثل مركزها الرفيع فتبتلع ريقها وتنظر في عيني أحلام وتقول مباشرة:

- أأنت امرأة شرقية؟

تتعجب أحلام متفاجئة من سؤال ليليان وتبرز الدهشة من عينيها وقبل أن ترد وإن لم تجد بالفعل أحلام ردًّا حاضرًا في اللحظة فتتولى ليليان الإجابة عن سؤالها بنفسها:

- رغم أني سافرت كثيرًا ومكثت فترات متقطعة هناك وتعلمت هنا وهناك في مدارس فرنسية وعملت في مركز تابع للثقافة الفرنسية وتوليت فيه منصبي هذا إلا أنني أعد نفسي امرأة شرقية، أنا امرأة شرقية!

تبتلع ريقها بصعوبة وتردف على مضض:

- وددت لو أتغير ولكني بقيت شرقية في قرارة نفسي رغم رغبتي في قطع صلتي بالثقافة الشرقية الخاصة بالنظرة إلى المرأة التي فرضت فكرًا وسلوكًا عليها؛ يؤسفني أني امرأة شرقية رغم كفاحي ضد هذا مرارًا، لو لم أكن امرأة شرقية لما تقبلت خيانة زوجي، فتثور أحلام مستنكرة:

- مدام ليليان، لم تكن لي أي علاقة بالسيد عزيز، أنتِ من فسرتِ إعجابه بي وتعامله معي بلطف على أن ثمة علاقة بيننا!

فتشير ليليان بالنفي بيد مثقلة وعين تمتلئ بالأسى والوهن:

- قلت إنني امرأة شرقية ولم أقل إنني غبية لأقف مع امرأة خانني زوجي معها أحادثها هكذا!

أنت زميلة في العمل فقط يا أحلام وإنسانة أعتز بمعرفتها وإن كانت علاقتنا فترت لفترة طويلة بسبب تفسير خاطئ مني لتودد زوجي المعتاد من كل...

وهي تبتلع ريقها بغصة:

- امرأة جميلة!

تخفض أحلام عينها على استحياء لما تحمله نبرات صوت ليليان من وهن وانكسار منصتة إليها:

- تقبلت خيانته وتجاوزت عنها مرة ومرات لا مثل الباقيات من النساء الشرقيات!

ولكن لأنني أريده هو دون غيره!

تدور عينا أحلام ويستوقفها ما قالت ليليان فتغمض عينها محتفظة بكامل صمتها والإنصات إلى ليليان وعينها تتقلب فيها الخواطر:

- لم تنهِ خياناته لي على حبي له من قلبي أو ربما لم أقوَ على بدء علاقة جديدة مع رجل آخر، أنا لا أنجب كما تعلمين وهو لا يحب الأطفال واكتفى بابنه من زيجته السابقة.

- لو لم أكن شرقية لأنهيت تلك العلاقة وذهبت لأتعافى ثم أبدأ في أخرى قد تكون الأنجح والأروع ولكني شرقية أخاف ولا آمن لمراحل التغيير؛ فأدفن رأسي كالنعامة خشية تبعات خطوة جديدة مجهولة حافظت بها على نفسي وكياني وكرامتي اتقاء لما لا أعرفه أو أتوقعه وهل الحياة إلا سلسلة من الأحداث غير المتوقعة! ولكني جبنت أمام وضع حد لإهانته مشاعري واعتباري وشراكتنا في حياة واحدة يقحم فيها على امرأة بعد أخرى!

كل امرأة شرقية تفضل البقاء مع رجلها في أسوء الظروف والأحوال على أن تعلنها أنا قادرة على صنع حياة جديدة مهما كلفني ذلك! لا نريد أن نتكلف ولا نحمل مسؤولية أنفسنا أمام أنفسنا نفضل أن نلقي بها على أب أو زوج، هكذا ربينا ولكن إن كان هذا دور التربية والتنشئة فما فائدة ما أتيح لنا من فرص للحصول على وعي متنوع وعلم ومعرفة تملأ الفضاء فوق رؤوسنا، لا قيمة لها ما لم ننتهزها فرصة لنغير أي واقع لا يقدم لنا ما نريد.

أحلام منصتة متأملة كمن يرى المتحدثة لأول مرة في حين لم تهتم ليليان لتلك النظرات مستمرة في حديثها:

- نفتخر بما حصلنا عليه من شهادات ومركز ولكننا من الداخل نظل أسيرات ثقافتنا، لو لم أكن شرقية لصفعته على وجهه مع أول إهانة وجهها إلى

قلبي وأنوثتي عندما علمت أنه عاشر امرأة غيري تكبرني في العمر وقتها، ثم ثانية في أقل من نصف عمره، وغيرها، وغيرها...

ربما لو صفعته وأوقفته ودافعت عن نفسي لتوقف عن خيانتي أو طلقني ليسترد كبرياءه ويكذبني إن أصررت على وصمه بالخائن الذي لا يرقى أن يستمر زوجًا لسيدة محافظة، ولأن الطلاق قد يقع لأي سبب كان أجدى أن يحل بعد انكشاف أمر الخيانة، ولكني لم أقوَ ولم أفكر يومًا في طلب الطلاق لأي سبب ربما في أوقات الغضب الشديد فقط عندما يفيض بي بسبب تصرفاته وإن أطاعني وقتها لوقع!

ألم أقل لك إن الطلاق يمكن أن يقع لأي سبب فإن حدث فكان أولى بعد تأكدي من خيانته لي في المرة الأولى أو العاشرة!

بقيت معه أتجرع مرارة خياناته لي كقدر وكنت أتحايل على نفسي بما يتردد في مثل تلك الأحوال، ولا أريد أن أعيد جلد ذاتي بإعادة سردها الآن.

وفي محاولة من أحلام لوقف نزيف الذكريات والاعتراف من قبل ليليان أمسكت بيدها قائلة:

-هم من يجعلوننا شرقيات، فكل امرأة لا تبغي أن تكتوي بثقافة الشرق المصوبة إلى صدور النساء، لست وحدك من عانيت من تلك الثقافة فكلنا نعاني بنسب وبقدر ما تخضع كلٌّ منا لذلك، وإلا ما كنت أجدد عهدي مع الترمل للعام الثامن!

هنا استشعرت ليليان أن غالبية النساء تكابد ما تكابده وخفف من ذلك ما قالته أحلام كذلك مردفة:

- ووددت أن أعتذر لك بطريقتي عما بدر من زوجي في حقك وما ألحقته بسوء تفسيري

ففترت علاقتي بإنسانة نبيلة مثلك!

قاطعتها:

- لا تتذكري وتذكريني بما كان!

باستدراك وتبتلع عينها دمعة راكدة فيهما ويتهلل وجهها وتقول كمن يلتمس الموافقة بلا تردد:

- فرنسا بكل ضواحيها ومدنها العريقة ستنال إعجابك وتخطف قلبك وعقلك، عليك بزيارتها في أقرب وقت.

وتربت ليليان على يد أحلام بجدية وود والعيون تتلاقى وتتعانق فتبتسم أحلام وتومئ برأسها فتربت على يدها ليليان ويتوجها معًا للخروج من القاعة الكبيرة.

(٧)

نهى تبكي بحرقة على صدر أمها التي تربت على ظهرها بحنو وتردد:

- لا تظلمي زوجك يا نهى!

جمال رجل محترم ومتربٍ لا تظلميه يا نهى؛ لم يبدر منه ما يخجل أو يشين منذ أن أخذك من هذا البيت.

نهى بيقين وفي أسى:

- ولكنه يعرف امرأة غيري يا أمي!

- هل تأكدت، أم مجرد شكوك واتهامات؟

- من فترة كبيرة لدي هذا الإحساس هو لم يتغير معي ولكني مع الوقت بت متأكدة مما أحس به.

الأم بنبرة جادة:

- لديكما بنتان يا نهى وعشرة تمتد لأكثر من عشر سنوات!

- وهل قلت إنني أريد الطلاق!

تنهدت الأم بارتياح:

- لم أقل إنك ستطلبين الطلاق، بل أذكرك فقط أن بينكما عشرة ليست بالهينة.

الابنة بغصة: - لم أنسَ!

- لم تتبدل معاملته لك ويعاملك معاملة طيبة ويهتم بك ويحبك.

وهنا تصيح نهى بحزن وغضب من بين دموعها قائلة وهي تشير بإصبعها في وجه أمها:

- لا يحبني.

تتأملها أمها بشفقة واستنكار فتردف نهى:

- لا تقولي إنه يحبني هو لا يحبني ولم يحببني في يوم، تزوجنا وأنجبنا وعشنا معًا ولم يحببني يومًا يا أمي لم يحببني!

تنصت إليها الأم بأسى وتحاول أن تظهر تأثرها العميق لما تشعر به ابنتها فتظل تشكك في إحساسها وتخفف من ثورتها وحدة انفعالها تجاه ما عاهدت نفسها المضي فيه!

- لا يحبني أنا، هو يحب الأخرى يحب غيري!

تقاطعها الأم بحزم مشوب بالشفقة:

- لا تقولي هذا يا نهى، لو لم يكن يحبك ما كان يعاملك بتلك المعاملة ولا اهتم بك؛ يعود إلى بيته متعبًا من عمله لم يثر عليك يومًا أو يتطاول في نقاش أو في لحظات الغضب

هل أتيتِ إلى هنا وتركت بيتك إثر أي خلاف معه، إنه يعشق بيته ويحب أولاده وزوجته!

- أرجوك يا أمي كفى، أنا لست طفلة لو كان يحبني لعرفت وشعرت بهذا، يحافظ على بيته نعم وأولاده ولكنه لا يحبني!

- وهل يكرهك يا نهى؟

- لا يحبني ولا يكرهني، نحن زوجان فقط!

- وما الفرق!

- كبير، الفرق كبير يا أمي، كبير جدًّا!

كنت أتجاهل الفرق هذا في كل أيام وسنوات زواجنا، لم أكن لأتوقف لأعرف الفرق فحياتنا معًا مستقرة وبلا توترات أو مشكلات كبيرة، فضلت أن أحيا معه في انسجام وهدوء على أن أتساءل عن الملل السريع المتسرب إلى حياتنا، عن البرد لِمَ يتضاعف في علاقتنا بعد أبسط خلاف، وتسير الحياة على وتيرة واحدة إن تعاتبنا أو لم نتعاتب لا نقترب ولا نبتعد كل منا يعرف ما هو مطلوب منه كل يقوم بما هو مطالب به تجاه الآخر، وبعد كل خلاف منه أو مني يقوم كل منا بتصحيحه بألا يكرره وفي صمت!

أريد الاستقرار وحياتنا مستقرة، فلم زهد هو واشتاق لهبات العواطف والمشاعر، لم زهد البرد وحنَّ إلى العواصف، لو كان الحب مهمًّا بالنسبة إليه في تكوين أسرة وزواج لِمَ لم يتزوج من أخرى يحبها، لم تزوجني أنا!

لم يكن يعرفني قبل الزواج، لم نكن نحب بعضنا، أنا كذلك لم أعرفه وتزوجنا ولكنني أحببته بعد الزواج، فلم لم يبادلني حبًّا بحب، لم!

الحب ليس معادلة أحببني لأحبك، أعرف، ولكنني طمعت أن يحبني أو هكذا كنت أقنع ذاتي أنني ما دمت أحبه فهو أيضًا يحبني، لم يقلها صحيح، ولكنني رأيتها في أفعاله!

تقاطعها الأم مستبشرة بحكم متزن من ابنتها في اتجاه حياتها مع زوجها:

- وهذا أهم، كيف يعاملك، هل تظنين يا ابنتي أن كل من تزوج بمن يحبها يعاملها معاملة طيبة، الحب لوعة وعذاب وكل يوم في حال، كل ساعة، يا نهى، حياتهم تخلو من الاستقرار كثيرة العواصف كما قلتِ يا حبيبتي، فهل كان يناسبك أنت حياة غير مستقرة ما تصبحين عليه تمسين على نقيضه، هجر وعتاب ولوعة وشوق وجروح ودموع!

-لا، يا أمي، ولكن يحز في قلبي أني أحببته من كل قلبي ولم يفعل!

-لا تعيدي ذلك رجاء!

- هذه هي الحقيقة، إن لم يأتِ الحب في البداية فلن يأتي أبدًا!

- ألم تقولي إنك تفضلين حياة الاستقرار وأن حياة العواصف لا تناسبك، وها أنتِ تعيشين الحياة التي تريدينها وتناسبك!

-وحبه لأخرى يا أمي؟

- سيخمد وينتهي، الحب عمره قصير.

نهى وقد استعادت بعض هدوئها:

- وإن لم يقصر عمره!

- سيخمد وينتهي صدقيني.

جمال لا يهتم كثيرًا لحال قلبه، فهمه الأول هو عمله وكيف يكبر العيادة أو ينتقل إلى أخرى في مكان أفضل ويجدد نوع سيارته، فاعتبريها فورة عواطف وستهدأ للأبد.

- وإن لم تهدأ؟

ستهدأ وللأبد.

ولن تتكرر اعتبريها غلطة وسقطة له في مشوار حياتكما.

- ولكن يا أمي، نار مشتعلة في قلبي!

- أطفئيها يا نهى!

ترمق أمها بعيون دامعة وعتاب:

- يا أمي!

- أطفئيها بالحكمة.

هل ترغبين في تركه وطلب الطلاق!

لا ترد نهى وتخفض عينها في ارتباك وحزن فتنوب الأم عنها بالإجابة كمن يتحدث إلى نفسه:

- بيتي في أمان وأولادي في حضني وزوجي لا يبرح بيتي فلم أفكر أو أشغل فكري لن أذبل بالفكر والحزن والأسى والخوف أنا على أرض صلبة، ولن أهدم بيتي لأفسح المجال لأخرى تحل محلي في حياته، هو زوجي وعشرة عمري وأنا أريده إن كانت هي في قلبه فأنا في بيته ولن أغادره أبدًا!

ثم تحتضن الأم ابنتها وهي تمسح دموعها بطرف إصبعها في حنان واحتواء

تستسلم نهى في أحضان أمها وهي تتنهد بارتياح وترقب.

وتمسح الأم بيدها على شعر ابنتها وعينها تفيض شفقة وأسى وقلقًا.

(٨)

بينما يداعب جمال مي ومنة في غرفتيهما تطل نهى من جانب في الشقة وعينها مليئة بالأسى واللوم!

منة: أبي ارسم لي حصانًا أبيض.

جمال بمرح مستغربًا:

- حصان وأبيض!

تومئ برأسها مؤكدة:

- نعم، طلبت المعلمة منا رسم الحصان وتلوينه باللون الأبيض.

جمال ينادي على مي ويقدم إليها كراسة الرسم والقلم الرصاص ويطلب منها رسم الحصان مداعبًا:

- لحظة يا منة، مي ستعلمنا كيف نرسمه!

منة بحزم وهي تنظر إلى مي بتحدٍّ، هي لا تعرف!

جمال وهو ينظر إلى مي بتشجيع ومي تنظر إلى منة بعتاب:

- كيف عرفتِ؟

- أنا سألتها، وقد طلبت من أمي ولكنها لا تحب الرسم.

جمال مستغربًا ويكرر ما قالت:

- لا تحب الرسم!

منة: نعم، قالت ذلك.

مي كمن يلقي بمفاجأة وهي ترمق منة بسخرية:

- أمي ترسم جيدًا ولكنها لا تريد أن ترسم لك.

فتنظر منة إلى جمال بترقب عابسة الوجه، فيبتسم جمال ويخفي استغرابه، ثم يجذب ورقة رسم من كراسة بها صفحات معدودة بلا غلاف ويضع أمام مي إحدى أوراقها وقلمًا رصاصًا، وأمام منة ورقة أخرى وقلمًا رصاصًا أيضًا كما يمسك هو بورقة له ويحاول رسم حصان على أن يشرعوا جميعًا معًا في محاولة لرسم ذلك الحصان الأبيض:

- كلنا سنرسم الحصان الأبيض ونرى من منا قد رسم الحصان أفضل، فتضحك البنتان وترحبان بالفكرة وتبدأ كل منهما في محاولة الرسم وتقليد نموذج لحصان مرسوم على قطعة من المكعبات التقطها جمال من صندوق الألعاب وقام بوضعها أمامهما.

تظاهر جمال أنه يضاهي رسم الحصان مقلدًا الشكل المرسوم على المكعب ورسمه في الورقة، وهكذا أخذت تقلده الفتاتان وهما مبتهجان وقد سيطر جوٌّ من التنافس عليهما!

تظهر نهى ثانية من جانب في الشقة وهي تنظر إليهم بترقب خاصة بعدما ساد صمت بداخل الغرفة إلا من أصوات احتكاك الأقلام بالورق، ومنة مهللة بزهو وهي تقرب ورقتها إلى جمال وقد رسمت إحدى أذني الحصان فيتهلل وجه جمال ويثني على رسمها بنظرات التعجب والإعجاب:

- واو! لقد قلتِ إنك لا تستطيعين رسم الحصان الأبيض، ولكي يظهر باللون الأبيض نقوم بتلوين ما حوله بلون آخر، بالأخضر مثلًا وكأنه يقف في مزرعة مفتوحة أو حقل مليء بالعشب.

تتدخل مي في الحديث محاولة الرسم هي الأخرى وتظهر في ورقتها الخطوط الخارجية لجذع الحصان مضاهيًا للحصان المرسوم على المكعب!

مي: الرسم سهل يا أبي، لن أتوقف عن الرسم ثانية!

منة بثقة وتأكيد وهي مستغرقة في الرسم تنظر تارة إلى المكعب ثم بالقلم ترسم في الورقة:

- ولا أنا!

فيبتسم جمال وينسحب من بينهما ويتركهما ترسمان الحصان الأبيض منوهًا:

- أخبراني عندما تنتهيان.

منة ومي في اللحظة ذاتها: حاضر يا أبي.

يتسلل جمال خارجًا من الغرفة إلى الصالة يجول بنظره باحثًا، يطل برأسه باتجاه المطبخ فيجد المكان ساكنًا بلا حراك، فيتجه إلى غرفة النوم فيجد نهى ممددة على السرير مسترخية، وما إن تراه حتى تعتدل وتجلس ممددة تستند إلى السرير وهو واقف في جمود!

نهى بلوم:

- لم أنت واقف هكذا في مكانك؟

- لا شيء، كنت أبحث عنك!

تعلق وكـأنها تتلو عليه ما يطلبه غالبًا منها وذلك على سبيل اللوم وشيء من التوبيخ:

- هل أعد لك فنجان قهوة؟

جمال يتطلع إليها في دهشة وترقب:

- لا

نهى بآلية وبنبرة صوت عاتبة وبها بعض الحدة:

- أعد لك كوكتيل الفواكه بالحليب؟

يقاطعها: وهل أبحث عنك فقط لطلب أكل أو شراب يا نهى!

بغضب مكتوم: لم كنت تبحث عني؟

- لأسألك منذ متى وأنت لا تجيدين الرسم، أقصد لِمَ لَمْ ترسمي لمنة الحصان الأبيض؟

- أجيد، ولكني لا أريد إلحاحها هذا وقتما تريد!

- مثلك يا نهى!

نهى باستنكار ولوم:

- أنا، وهل أنا ألحُّ في تنفيذ ما أريد في حينه مثل ابنتك!

- مثل ابنتي!

تدرك حدتها فتتراجع عنها:

- كثيرة هي طلبات البنتين، لا تنتهي، وقد تعبت من كثرة شكواهما وشجارهما المستمر على أبسط الأشياء!

جمال بتفهم:

- قدرنا الجميل أن نرزق بـتوأمتين!

يستوقفها وصفه هذا فتتأمله بعتاب ولا ترد وهو ما زال جامدًا في مكانه مطمئنًا مبتسمًا،

فتعتدل في جلستها وتفيض عينها بالكلام، توشك أن تقول شيئًا فتتراجع، تنوب عنها نظرات الحيرة والعتاب في عينها، يستدير ويهم بتبديل ملابسه استعدادًا للخروج، وفجأة تندفع مي إلى داخل الغرفة عليهما ممسكة بورقة الرسم مهللة:

- أبي!

فيلتفت ناحيتها مبتسمًا وتقرب ورقة الرسم ناحيته:

- مي رسمت الحصان!

فيمسك الورقة ويتأمل الرسم بإعجاب ويثني عليها في حين نهى تراقب ما يحدث ولا تتحدث.

جمال: هذا حصان بالفعل.

مي: وأبيض أيضًا.

فتبتسم نهى وترمقها بنظرات الحنان والإعجاب!

جمال: ذكية ولماحة كأمك تمامًا!

فتبتسم نهى في سخرية وتخرج من الغرفة في امتعاض وضيق!

جمال ينظر إليها بحيرة وقلق ثم يلتفت إلى مي التي تتأمل رسمتها وتنتظر الملاحظات، فيصلهما صوت منة من الصالة وهي تري نهى رسمتها هي الأخرى قائلة:

- أمي، ما رأيك؟
- أنت ترسمين أفضل مني، فلم طلبت أن أرسمه لك؟
- أبي علمني كيف أرسم.

ينصت جمال إلى حديث منة الواصل إليه من الخارج مبتسمًا، لكن مي منشغلة في تأمل رسمتها التي حاكتها من أحد مكعبات صندوق ألعابها حيث عبرت على مضض عن محاولتها فتسمعها نهى مقاطعة:

- وقد رسمته مثلما هو على المكعب، أعطيك جيد جدًّا!

وبسرعة تندفع مي إلى الصالة لتزداد تأكدًا:

- انظري!
- جميل جدًّا!

ويتجدد شجار بريء بين الفتاتين تنهيه نهى بنبرة صوت حازمة:

- اذهبا لعمل باقي واجباتكما إذن.

فتدخلا الغرفة متناوشتين في براءة ومرح.

(٩)

في إضاءة خافتة، تجلس أحلام في جانب من الصالة على الكنبة تضم ركبتيها إلى صدرها ويتردد صوت موسيقا هادئة من جانب في المكان غارقةً في أفكارها تتلاحق الخواطر على ذهنها وعينها شاخصة مثبتة في اللاشيء أمامها تهمهم لم أخبرتني ليليان بهذا الجانب من حياتها هل لأنها بالفعل نادمة على الفترة الطويلة التي ظلت تفتعل فيها المشكلات معي وتقف لي بالمرصاد أمام كل فرصة لمكافأة أو امتياز في المركز، أنا لا أهتم لمثل هذه المسائل ولكن هل هذا هو السبب الحقيقي وراء حديثها اليوم على هذا النحو ومن هذا الجانب الأكثر خصوصية في حياتها! قالت ولم تقل شيئًا ذا أهمية فهي تعلم بعدم وجود علاقة بيني وبين هذا الرجل الخائن زوجها، فلم كل هذا!

أهو بوح منها لامرأة مثلها، لكن كيف وقد اجتازت تلك الفترة العصيبة من حياتها فهي في غير حاجة للبوح!

ألِأَنها قست في تصرفاتها معي وتريد أن تصلح ما أضرمه سوء تفسيرها للموقف على حد وصفها من النار والخلاف في علاقاتنا! ربما فهي امرأة شجاعة فعلًا.

أنا لست في مثل شجاعتها هذه، أما بالنسبة إلى زيارة فرنسا فكم أتمنى ذلك!

لحظة! هل تريد أن تصلح ما كان بتهيئةِ زيارةٍ لي إلى فرنسا، لكنها وقفت كثيرًا في سبيل تحقيق ذلك لمرتين! إنها تتصالح مع ذاتها وتخمد غيرتها بيدها؛ هي تعلم جيدًا وقد تأكدت من هذا أنه ليس من جانب عزيز لي أي عاطفة هي غيرة فحسب وهل أُلام في ذلك!

هل يُعقل لأي زوجة أن تنتقم من كل امرأة يعجب بها زوجها، فما ذنب الأخريات إذن، أم لأن ليليان تملك السلطة لتنتقم ممن أثارت فيها شعور الغيرة المر بسبب إعجاب زوجها بهذه أو تلك! لم نقسو نحن النساءَ بعضنا على بعض هكذا! لم لا يفعل الرجال ذلك فيما بينهم، أم أن كل رجل يوقن تمامًا أن زوجته لن يشتهيها رجل آخر! أو ربما إن حاول كل رجل أن ينتقم ممن يسدد نظرات الاشتهاء والإعجاب إلى زوجته لما بقي في أرجاء هذا الكوكب رجل! ليليان ضميرها يؤنبها لأنها عاقبتني على إعجاب زوجها بي، هو وضعها في مرمى نيران الغيرة ليشتعل قلبها حقدًا وسخطًا وألمًا فاستجارت بمنصبها الرفيع لتطفئ ذلك كله بالتسبب في إيذائي لأن زوجها الخائن الذي تلتهم عينه مفاتن النساء فلا تشبع رصدني، فما كان منها إلا أن تجعلني أدفع تكلفة غيرتها هذه وهي تعلم أني واحدة في قائمة متجددة يستهدفها بدناءته وحقارته هل ذنبي أن أكون محل إعجاب بعضهم!

ثم ماذا تفعل النساء في مثل موقفي لترضى عليهن الأخريات هل يتمنين لو كن مشوهات لتكون كل امرأة غيورة على زوجها في مأمن! أم ماذا نفعل ليحل الأمان والسلام في النفوس لم لا تحاسبه هو!

هدأت نفسي تجاه ليليان وقد أقتنص فرصة زيارة فرنسا فتلك أمنية عزيزة على نفسي كنت أتمنى لو كان والدي على قيد الحياة لأخبره أني بصدد الذهاب لزيارة البلد الذي أغرمت به ورفضت مواصلة دراسة الطب لأطلع على آدابه وثقافته وأنقل بعضًا من مآثرها إلى مكتبتنا العربية فهل كان سيسر بذلك! أظنه لن يكون غاضبًا بعد كل تلك السنوات سيكون غاضبًا من مسألة التحول للعمل بترجمة الآداب فالأيام قادرة على نزع فتيل الغضب فيهدأ ويبرد وينطفئ في مواضعه بداخلنا.

إنها تكسو كل شيء بطبقة هشة لينة تمتص ملامح الأشياء معها وتبتلعها. إنها الأيام التي انفلت بها عمري فلم أدرك أنني صرت في الرابعة والثلاثين ولم أتزوج ثانية!

هي التي تمضي فوقي تجرف مني نضارة شبابي وصفاء نفسي وسكون روحي تدفعني يسارًا ويمينًا في الحيرة والقلق والترقب، وتضعني على حافة الانتظار، أنتظر منها أن تمضي بوتيرة أهدأ لا تتيح صنع حياة جديدة وتحقيق أحلام قديمة؛ فأعيش يومًا بعدد ساعات أقل عجلة في مرورها أنجز ما أطمح إليه وأخطط له وأكتفي من عدد ساعات نومي بلا قلق ولا أرق أن تحنو على من يقف مثلي في محطات الانتظار لو تعي الأيام ما يحدثه مرورها

الخاطف من شروخ في أرواحنا وتمزقات في نفوسنا وفوضى في ذواتنا كيف تمضي فزعة ونحن ما زالنا نخطط بتأنٍ وجموح فيصيبنا مرور الأيام بتلك السرعة بالصدمة والخيبة فنشعر أننا نقف في منتصف طريق ممهد في مكان ناءٍ تمضي السيارات عليه مسرعة مخلفة غبارًا واندفاع الهواء، تمضي فلا تتوقف، تدك الأرض من تحت عجلاتها فتحدث صوتًا يدل على وجودها عليه في تلك اللحظة الخاطفة، هل ستمر غدًا، أو هل يدرك الطريق إن مرت ذاتها أو مرت غيرها! لم تظهر علامات السن بعد على محياي؛ فوجهي يفيض نضارة وطراوة وشبابًا كما أن عيني لامعة وبياضها صاف ومقلة العين اللامعة دليل عافية الجسم ولي نظرة مشرقة لا تتوارى إلا أوقات الضيق والحيرة مثل وقتي هذا أنا حائرة وآسفة على نفسي! لم أحببت رجلًا متزوجًا ولديه أسرة لم أغرمت به وأنا أرى رجالًا كُثرًا وقد حاول بعضهم التقرب إليَّ مثل عزيز ليليان وأنا أصد وأمضي في طريقي، فلم هو!

نعم كيف أحبه بعد سنوات ظل قلبي موصدًا على أحزاني وشجوني، في أحلك الأوقات كنت أنظر في لحظات ضعفي الشديد ونفاد أملي أن الحب ترف أو أنه بلا جدوى في التصدي لما أشعر به من ضيق وضجر وسخط ومضت حياتي تسرقني الأيام وتسلمني بعضها إلى بعض بفكرتي تلك فحسب!

تصمت أحلام لحظات وهي تحاول الإفلات من أحكامها الازدواجية وتخبطها المتعمد لتهيل النسيان على حبها لجمال، تتخبط بين شعورها بالذنب وبين شعورها بالأنانية بالذنب في حق أسرة جمال وبالأنانية فيما يخص كريم ابنها الوحيد الذي ترى أن ارتباطها ولو بالحب سيأخذها من ابنها الذي ترى أنه هو الأهم والأولى بكل عواطفها ومشاعرها فمن يهتم به ويحتويه سواها، لا أحد له غيرها!

أما أسرة جمال التي لا تعرف عنها شيئًا فهي ترى أنها استهدفت بمشاعرها أمن تلك الأسرة واستقرارها وتأخذ منها القائم بأمرها والراعي لها كما ستتسبب في ألم لزوجته والحيرة والخوف والقلق لأبنائه خشية إهمال أبيهم لهم والذهاب إلى أخرى كما وأن الأم هنا لا تتوانى عن إشعال الغضب في نفوسهم تجاه أبيهم.

هل أقسو على نفسي في شعوري بكل هذا أم أن عليَّ أن أعفي نفسي من الشعور بأي ندم أو اتهام بالأنانية، خاصة وأنني لم أخطط لأخذه ولم أدرِ كيف تسرب الحب إلى قلبي، لمَ أقسو بهذا الشكل على نفسي لم اعتصر قلبي وهو الظمآن إلى الحب ولم أعتبر حبي لرجل أنانية مني في حق ابني وأني بصدد إهماله وإشعاره بأنه فقد كل معين له في الحياة!

إلى أين ستوصلني قسوتي على نفسي بلا شك إلى أبواب الجحيم النفسي الذي اكتويت منه بعد رحيل زوجي وأنا شابة في أواخر العشرينات من عمري هل في نفسي طاقة لتحمل ذلك مجددًا.

وهل كل امرأة أحبت رجلًا متزوجًا كانت هي وراء تحطم بيته وشتات أبنائه وإيلام زوجته، أكلُّ البيوت آمنة وسعيدة ومتماسكة حتى تأتي امرأة فتحيل أحوالها دمارًا وإعصارًا!

أكلُّ الزوجات هانئات مطمئنات، وكل الأزواج سعداء مكتفين بأسرهم يعتنون بهم يكادون لا يبتعدون في غير أوقات العمل من فرط الدفء والسرور في أرجاء بيوتهم حتى تأتي إحداهن فتلقي تعاويذها فيغدو رجلًا بلا رحمة يدمي قلب زوجته ويلقي بفلذات كبده إلى الطرقات ويهيم خلفها يتمنى رضاءها ويغدق عليها من عواطفه وماله!

كل رجل وكل امرأة يعلمان جيدًا لِمَ يفترقان، ولكننا نتقن فن الكذب على أنفسنا ونفتش مع أول مشكلة عن آخر أو أخرى ليحملوا عنا أسبابها فنعفي أنفسنا من أسباب وقوعها كما نُعفى من ضرورة حلها؛ فليست من صنعنا، ونظل ندينهم ونتطهر على حسابهم فنخرج من مشكلة لنقع في جديدة ونحن نخدر أنفسنا بجدارة وحرفية بنصف ما يبذل من جهد هنا، كان يمكننا أن نتدارك مع بوادر أي مشكلة ونحاصرها قبل تفاقمها، لكن يبدو تحمل المسؤولية ترفًا، شاقًّا، يتهرب منه الغالبية ولكن، كيف أتصرف في مأزقي هذا، كيف أفلت أنا!

ولْأَكُنْ البداية، فها أنا أحب رجلًا متزوجًا ولديه أسرة، لا أريد أن يحولني بعض العقلاء إلى خرابة بيوت ولا أريد أن أضع حياتي في مهب الريح، فأنا أبحث عن الاستقرار وأريد تكوين أسرة من جديد، أريد زوجًا

وطفلًا، وهذا لن يتحقق مع رجل متزوج ولديه بيت آخر وأبناء وزوجة، ثم هل أقوى أنا على احتمال أن أكون الثانية، هذا أمر شاق على نفسي ووضع مركب معقد!

عليَّ أن أنهي كل هذا وأعود إلى وضعي الذي شاءت له أقداري أن يكون على أن أحمي حاضري ومستقبلي من تجربة المضي في أمر سيكون مكلفًا لا أريد أن أشقى بفراق جديد بطلاق على الأغلب فيكفيني فراق واحد كان بموت والد كريم لا أريد أن أعايش أشباح الفراق ثانية لا سيما بفعلتي، لِمَ أتزوج ثانية وأضع حياتي في مواجهة أهواء رجل آخر قد يتخلى عني في أي لحظة ويذهب مخلفًا ركامًا من الحزن والحسرة في قلبي، إن قلبي لن يحتمل. عليَّ أن أكتفي بما لديَّ فأنا أم لشاب يافع مطيع مهذب، وأعمل في مركز متميز ووظيفة مرموقة، فما ينقصني اهتزاز مؤكد في حياتي لتضطرب كل أركانها فأظل سنوات أرمم نفسي من جديد، وهل قبول أرملة مثلي بأن تكون زوجة ثانية سيهدي إليَّ السعادة جاهزة! كلا، بل هو فشل وشيك حين أفكر في العمر الذي يمر وأقيسه فقط من ذلك الجانب، أنني لم أتزوج بعد والعمر يمر سريعًا! فليمر العمر... هل يمر عليَّ وحدي! منذ بدء الخليقة تطوى السنوات والأعمار، فليمر العمر، وعلي أن أتوقف عن جلد ذاتي، وعن حسبتي الخاسرة في قياس مرورها بحالتي الاجتماعية فحسب!

العمر يمر وكريم يكبر أمام عيني يبتهج لرؤيته قلبي ويسر خاطري وأرى ثمرتي تكبر أمام عيني فبعد العام سيلتحق بالجامعة، ثم يتخرج

ويعمل ثم يأتي يومًا وهو فرح ليخبرني على استحياء وقد قرر أن يعلن لي عن اسم حبيبته التي سيطلب مني أن أقصد بيت أهلها ليخطبها فنتناقش في تفاصيل الزواج وأقترح عليه أن يقيم الزواج في إحدى القاعات التي أعجبتني حيث حضرت فيها عرس إحدى بنات صديقاتي، ثم ينجب ما شاء الله من البنين والبنات.

عليَّ أن أتوقف وأترك العمر يمر كيفما يشاء مثلما يفعل مع الجميع عليَّ أن أصل إلى حل وديٍّ يمكنني من قبول هذا العمل وأتوقف عن كل فكرة تؤرق منامي وتعكر صفوي وتمرر ذهني بخواطر واهية تطعن في روحي وتهز قلبي وتستهدف تماسك نفسي، أم أقبل كل هذا وأترك الأمر يتلاعب بي حتى أهوي يومًا تحت أنياب المرض وأذبل وأموت فجأة! سأفتش إذن عن قناة تمكنني من المرور أنا الأخرى لمقابلة العمر في لحظة خاطفة قبل أن يمر، أقسم له فيها أني سأحاول قبول مروره فوقي كيفما يشاء وقد أصفق له، فهل أستطيع!

يقطع عليها خيط أفكارها دخول ابنها يحملق في وجهها المبتل بالدموع وعينيها الحمراوين كمن أصابه الرمد وجسدها الذي يرتعش...

كريم بخوف وجزع والدموع تحتشد في عينيه:

- أمي!

وينحني فوقها وقد تكورت في مكانها وتبدو كامرأة عجوز طاعنة بالعمر ترتجف وتنساب الدموع من عينيها بلا توقف!

تنتبه فتنظر إليه من وضعيتها المنكفئة من منتصف عينها وجفونها يكاد بعضها ينطبق على بعض، ولم يخرج منها صوت، تنتبه أحلام أنها كانت تبكي وقد اختنق صوتها، يتأملها كريم بعين دامعة وهو يربت على ركبتيها وباليد الأخرى على كتفها فتعتدل أحلام بعناء وتسترد وضعيتها قائلة بصوت واهنٍ متحشرج:

- كريم!

كريم وهو متوحد مع حالاتها يحز في نفسه أن يراها بتلك الحالة من الوهن والانكسار والحزن الشديد تتساقط دموعه دون سيطرة منه عليها ويلملم نفسه وبنبرة حزم ولهفة:

- ما بك يا أمي، هل ضايقك أحد، ماذا حدث، أخبريني لم تبكين، هل ضايقك أحد!

فتهز أحلام رأسها بجدية بالنفي وتقشعر جبهتها لتوحي له بأنها متعبة قليلًا لتطمئنه وبالفعل يبدأ في استعادة هدوئه ويتلاشى قلقه إلا من تأثر يزداد على ملامحه وفي عينيه التي تتفحصها بقلق وشفقة، ترى أحلام أن عليها أن تخبره بشيء، بأي شيء ليهدأ وتتوقف عينه عن التفتيش بداخله ليعرف السبب فتقول بصوت مبحوح:

- الذكريات... الذكريات يا كريم!

فيهز رأسه موقنًا بأنها تفكر في والده الراحل وحياتها معه فيتأملها بشفقة ويربت على كتفها بشفقة وتأثر متنهدًا وقد تلاشت من عينه الحيرة

والقلق ومعهما التساؤلات، في حين تتأمله أحلام بعين متأثرة بالبكاء تغبطه على أنه استراح لمعرفة سبب بدد كل ما به من قلق، شيء يروق له أن يكون السبب، تجده محظوظًا أن معرفة السبب يريح النفس ويخفف من القلق في حين أن سبب ما هي فيه يلازمها للأبد يعاودها كل فترة وقتما يريد ولا يختلف عن الذكريات ليت الزمن والخوف منه يتحول إلى ذكرى ولكن من سيتذكرها حينها سأكون طويت مع السابقين! هل الأفضل أن أظل خائفة على أن يسكن كل ما فيَّ وأنزوي في ذاكرة النسيان الأبدي من عمر البشرية ليأتي أناس جدد يمرون بما نمر ويعايشون ما نعايش.

أيهما أفضل أن ألتمس البقاء الأطول في ظل الخوف من سلطته عليَّ أم أسكت ذلك الخوف وأتقبل مسألة فنائي على أي حال ووضع وكيفية!

اطمأن كريم أن ما بي كان من حُمَّى الذكريات؛ فاطمأن وانصرف، ثم توجهت إلى سريري بعدما قمت بتقديم العشاء له في حين اكتفيت أنا بتناول كوب من الماء لعله يطفئ شجوني المشتعلة، وضعت رأسي على وسادتي حاولت أن أنام وظللت أتقلب في سريري فتتساقط فوقي الأفكار وتطل من رأسي الخواطر استعجلت مولد يوم جديد لأغلق صفحة هذا اليوم الثقيل!

في الأيام الجديدة فرصة لنيل ما ينقصك، وتعويض ما ضاع، ليس غالبًا هذا ما يحدث ولكن كل يوم جديد هو بحد ذاته فرصة لإصلاح ما تلف منا ومن حولنا أرجو ذلك بقوة فأنا في أمس الحاجة إلى مسكنات عاجلة إن لم تكن تلك الفرصة بالفعل أمورًا حقيقية تعوضني عما أصابني فآلمني!

***

عبرت الحديقة وأنا أتنفس الهواء الممتزج بروائح الزهور الزكية وقد جعلت عبوري فيها أطول من المعتاد؛ أحتاج إلى لمسة حانية من الطبيعة فهي بيت الجمال كل الجمال، سماء صافية تذكرك أن الرحابة والصفاء هما أكثر سَعة من الضيق؛ ففي رحابة الأفق انعكاس على صدرونا لتتسع فينزوي جانب آلامنا ومتاعبنا...

تنفست بعمق وودت لو كان صدري برحابة السماء، لو أن لي طاقة بتنفس كل روائح الزهور في الكون أنا أحتاج إلى مسكن والعطور أكثر ما يمكنه أن يخدر، هي ما يهدئ من روعي الداخلي وعيني تحتاج إلى رؤية أشياء زاهية متجددة لامعة تعيد إليَّ بهاء نفسي على أن أفلت من كل تلك الخرائب المنصوبة بداخلي مهما كلفني، سأنسحب من ذلك الحب، عفوًا أنا لا أحتمل كل هذا الألم، لم أعد من القوة لأحتمل بؤسًا ومشقة وعناء، أنا أحتاجه ليسعدني ويمنحني الأمان والسكينة، لأطمئن على قلبي لا لأدخل إلى نفسي وروحي وقلبي الانكسارات وتقبل الخزي والضيق في كل حين، ومن وقت لآخر أجد نفسي أدخل في نوبة نواح وعويل على شبابي، دعه يمضي، فليمضِ وأنا بقلب شاب، ولكن كيف يبقى القلب شابًّا بلا حب، هل مصيري أن أهرم ويهرم قلبي! إن القلب يهرم قبل الجسد وبعده وفقًا لحالة المرء، فكيف أجعله شابًّا في حالة لن أتمكن من الوقوف في وجه مرور

الزمن ولكي أبقي قلبي شابًّا أسقيه حبًّا كالطفل لا يترعرع جيدًا إلا في أجواء من الدفء والعناية والحب فكيف أبقيه بغيره!

ولست أدري أيحبني جمال كما يبدو لي منه، ثم تضحك في سرها ساخرة، إن كان يحبني فما يمنعه عني إذن! وربما لم يخبرني لأني قد لا أقبل ذلك الوضع سأرفض أن أحب رجلًا متزوجًا. لا أدري كيف يفكر ولكنه يحبني وهذا الأمر الوحيد الذي أتأكد منه ولكن عليَّ أن أواجه نفسي أنا بما أود سؤاله له هل تقبلين حب رجل متزوج والدخول في علاقة ثلاثية الأطراف؟ تضحك أحلام ساخرة، لست امرأة شرقية مثل ليليان ولا أنا امرأة غربية مثل رولا، أنا إنسان، والحب عندما يأتي لا يتخير ولا يعرف شروطنا وحدودنا في الحب، الحب يأتي وكفى وعلى طرفيه المواجهة وبدوري لم أكن لأبحث عن شريك فراش، قد كنت أشفق على قلب خال من الحب وعندما شعرت بحب جمال ابتهجت لذلك، ولم أطلب منه الزواج لأفكر في الدخول في علاقة ثلاثية أم أرفض، أنا أرفض أن أكون عشيقة وهذا ما أنا متأكدة منه كما أنا متأكدة من حب جمال بالضبط.

ترفع أحلام كفيها من فوق لوحة المفاتيح وتعتدل في جلستها وترجع إلى الخلف إذ كانت تميل إلى مكتبها منحنية الكتفين تفرد ذراعيها وتحرك كتفيها أعلى وأسفل بمرونة وتثني ذراعيها وتفردهما مرارًا لاستعادة الليونة إليهما وتجذب النسكافيه وترشف رشفة فتجده قد برد تمامًا يبدو أنها استغرقت وقتًا طويلًا في شرودها والغرق في أفكارها فتنظر في الساعة

تجدها الحادية عشرة فتعتدل في جلستها وتتراجع عن فكرة القيام وعمل كوب نسكافيه آخر يكون ساخنًا وتشرع في عملها بنفس مقبلة وهي تتنفس بعمق كمن تخلص من ثقله، ثم تنكب على اللوحة ثانية تقلب في الملفات على الجهاز وتفتح أحدها وتنقر على اللوحة بسرعة وآلية وعيونها تلمع بالتركيز مستغرقة في عملها وبجوارها القاموس مفتوحًا تنظر فيه مليًّا تلتقط كلمة فتنقرها على اللوحة، وتقوم بعمل وقفات وفصلات وهي تنظم مسودة العمل، وترشف من النسكافيه البارد بلا غضاضة، تكتب وتنقر على اللوحة...

(١٠)

في أحد النوادي الرياضية تراقب صفاء صديقة نهى أولادها يتمرنون، ومن حولهم الأطفال وأمهاتهم، وتجلس صفاء وأحلام معًا تتناولان مشروبًا بنشوة انتصار تمتلئ بها نبرات صوت نهى وصفاء تنصت إليها بترقب وإعجاب!

نهى بعد صمت متقطع:

- كما أخبرتك، لا جديد، شارد ومهموم وأنا أتجاهله تمامًا.

صفاء: مع الوقت سيزول همه لا تنشغلي كثيرًا بأمره.

- الغيظ فقط ما يسيطر عليَّ!

- معك، فالأمر يغيظ، ولكنه معك وأمام ناظريك.

- ولا شيء يهمني ما دام معي، حتى مسألة غيظي يخففها وجوده، فقط مرتاحة لتلك الحالة التي عليها دائمًا.

- تعلمين منها أنه كالطفل الخائب يريد ما لا تطوله يده، فلا يملك إلا أن يفكر ويفكر وهو ملتاع حزين!

- حزين!

- أعني لا حيلة له ولا حول ولا قوة، كل ما يمتلكه أن يفكر فيها فقط.

- الغبي، ولم يفكر في أخرى وأنا معه!

- تستكثرين عليه التفكير، اتركي له التفكير فهو من حق الجميع!

تضحكان...

والأهم أنك سيدة الموقف، وصدقيني مع الوقت سينزوي كل شيء.

نهى بتوعد وحنق:

- لن أنساها له ما حييت لن أنساها له أبدًا.

صفاء تهز رأسها متفهمة ومؤيدة:

- كل شيء مع الوقت يُنسى.

- لن أنسى!

- لن تنسي، لكن لن تكوني غاضبة، كل منا تحمل ذاكرته الكثير منها المؤلم والمقلب للتعاسة، والذكريات مهما كانت نوعية مواقفها وما نسترجعه تكون باهتة منزوعة الألم هي تحمل وخزات فقط.

- أتمنى أن تمر هذه الأيام الصعبة وتتحول إلى ذكريات منزوعة الألم كما قلتِ يا صفاء!

- سأذكرك بهذا يومًا لا تتعجلي كل شيء يأخذ وقته ثم يمضي.

نهى ترشف من العصير بشهية وترمق الكوب وعينها مليئة بنظرات الرجاء والتمني في حين تتأملها صفاء بود وتشجيع.

أصوات الأولاد من حولهما تتداخل، تعلو وتدنو وهم يتحدثون مع أقرانهم وحقائبهم بجوار نهى وصفاء كحال كل الأطفال.

***

تطرق أحلام باب غرفة كريم مساء وهي تطل من فُتحة الباب ممسكة بمقبضه وتتوقف مكانها فيلتفت ناحيتها كريم ويرفع عينيه عن شاشة الهاتف حيث يبدو وكأنه يهم بالرد على رسالة أحدهم لولا دخول أمه:

- لك مفاجأة عندي!

فيتهلل وجه كريم ويميل برأسه ويطرق سمعه لتخبره فتبتسم لهيئته:

- اخترت كتابًا مترجمًا يتناول السيرة الذاتية لأشهر لاعب كرة برازيلي كان يحبه والدك بشدة.

كريم مهللا في دفقة من الحنين والشجن ثم يبتسم بمحبة وهو يتأمل عيني أحلام المليئتين بالرضى والأمان!

- بيليه!

- الله يرحمك يا علاء! نعم يا حبيبي اللاعب البرازيلي الأشهر بيليه قصة حياته وصعوده إلى المجد والشهرة والنجاح من شوارع البرازيل إلى القمة ستدهشك وقراءتها ستمتعك!

يقوم كريم من مكانه فيقبل يد أمه بامتنان وفي مرح:

- واللاعب كريم علاء!

فتضحك وتقول باستنكار: أتريد أن تصبح لاعب كرة قدم!

كريم مترددًا وهو يمزح:

- لا، كرة طائرة!

أحلام وهي تهم بجذب أذنه بدعابة:

- لم أسمع، أعد ما قلت!

فيتظاهر كريم بأنه فقد الذاكرة ويشير بإصبعه ناحيتها:

- حضرتك تعرفينني، من أنتِ، وأين أنا، تضحك بشدة وفي امتنان وزهو!

- أما زلت تتذكر!

إنها الرواية الأخيرة التي قمت بترجمتها وقصصتها عليك!

كريم وهو يهز رأسه مؤكدًا:

- لا أنسى شيئًا تخبريننني به!

- كلامك يحفزني لأنجز ترجمة سيرة بيليه على وجه السرعة!

- أتمنى قراءاتها بالفعل!

- ويومها سأقوم بدعوتك إلى العشاء لنحتفل!

كريم يقفز في مكانه فرحًا:

- وأنا موافق!

فيتعانقان بضحك وحب...!

***

أول يوم في الدراسة من الفصل الثاني، وبعد عودة الطلبة من إجازة نصف العام، تتلألأ الشوارع بزينة البلاد وقوامها وعمودها الفقري وفلذة أكباد الأمم إنهم شبابها وطلاب العالم يملؤون الشوارع والطرقات في عرس معرفي بديع!

السماء وضاءة ساطعة في أولى ساعات النهار، الجو شتاء والبرد يتناثر رذاذًا أبيض في الأجواء، والأشجار شاخصة في أماكنها في صمود ثابت قوامها والطرقات تتنسم بهواء الجو البارد والمحال أغلبها مغلق والسيارات تسير في روية كمن استيقظ من نومه لا اندفاع ولا سكون كما يسير الطلبة في تهلل ببدء استئناف الدراسة، تتوقف أحلام بسيارتها أمام بوابة المدرسة فينزل كريم على الفور يلقطه زملاؤه ويصافح بعضهم بعضًا في حرارة ومحبة وحالة من الانتعاش والابتهاج تسيطر على الوجوه ويتدافع الطلبة باتجاه البوابات المفتوحة على مصراعيها في حين تراقب أحلام من المرآة الخلفية كريم وزملاءه باسمة ثم تنطلق بسياراتها في طريقها للذهاب إلى عملها تنصت إلى موسيقا فرنسية كلاسيكية ناعمة تدخلها في جو متواصل من الانتعاش والإقبال والارتياح وتنطلق وسط السيارات بهدوء ويقظة تعانق أصداء الموسيقا الهواء البادر القادم من شباك السيارة.

تصل أحلام إلى مبنى المركز وتترك سياراتها في مكانها المعتاد في الجراج وتنطلق إلى الداخل تلمح من بعيد ليليان وعزيز يسيران معًا في منتصف الردهة فترتبك وتفكر في أن لو تبطئ من خطواتها حتى لا تلحق بهما، ثم

تنظر الجهة الأخرى تحسبًا لأن يلتفتا فيجداها خلفهما تنظر إليهما فتسير ببطء في الممر تتلفت يمينًا تارة ويسارًا أخرى وفجأة يتردى من خلفها صوت رولا تنادي عليها بعفوية وبصوتها الأقرب إلى الجرس الرنان بلكنة عربية متأثرة بالفرنسية أحلام وكأن الألف صار هاء في نطقها للاسم؛ فتلتفت أحلام إلى رولا في حين يلتفت عزيز إلى أحلام وليليان أيضًا التي تنظر إليه بسخرية وضيق مستتر وترسم ابتسامة كيلا يلتفت ويلمح رد فعلها وتنظر ناحية رولا وأحلام مبتسمة، تتوقف أحلام في مكانها وتلحق بها رولا التي تمسك بيدها بامتنان وعتاب محبب وتبتسم فتخفض أحلام عينها في رقة وتبتسم في سماحة لرولا التي تقول:

- صباح الخير أحلام!

- صباح النور يا رولا!

أراك أجمل من كل يوم، فتبتسم رولا على استحياء متأملة هيئة أحلام بإعجاب وفي ثناء:

- "ميرسي أهلام!"، إن لطفك الدائم يخجلني حقًّا!

فتبتسم أحلام ويسيران في اتجاههما فيلمحان ليليان وعزيز ينظران إليهما بترقب في حين رولا وأحلام تنظر كلٌّ منهما إلى الأخرى فتقطع رولا النظرات صائحة:

- آه واه!

أحلام وهي تنظر إليهما مبتسمة وتبتلع دهشتها:

- صدفة لطيفة ورائعة!

ويتقدمان باتجاههما والعيون تعكس ما يحمله كل فرد يخص به واحدًا دون الباقين.

تتجنب النظر إلى عزيز وتنظر صوب ليليان مبتسمة ورولا تنظر إلى ليليان بلوم شديد وترسم ابتسامة مترددة، وعزيز ينظر إلى أحلام باستنكار ويرسم ابتسامة بلا معنى أما ليليان فتستقبل نظرات الجميع وهي تود لو تلتفت وتنظر في عيني عزيز، وباقترابهما تتقدم أحلام إلى ليليان وتصافحها باليد ثم عزيز الذي لفت انتباهه مصافحة أحلام لليليان أولًا في حين تفعل رولا العكس، ثم على مضض تصافح ليليان التي تتأملها بحذر.

أحلام ورولا:

- صباح الخير!

عزيز:

- صباح النور!

ليليان:

- صباح النور، صدفة مدهشة أن نتقابل جميعًا بعد أسابيع لم نلتقِ!

رولا:

- صحيح، أهلًا أستاذة ليليان!

- أهلا بك رولا، كيف حالك!

- بخير!

ليليان:

- أهلًا أحلام!

- أهلًا أستاذة ليليان!

أحلام:

- أهلًا "مسيو عزيز"!

- أهلًا أحلام، كيف حالك!

- بخير!

ويسيرون متبادلين الابتسام وفي عين كلٍّ منهم من الأسئلة ما فيها، ثم قال عزيز:

- لو لم نكن في أول وقت العمل لقصدنا المقهى فجلسنا معًا لتناول مشروب دافئ ويعرف بعضنا أخبار بعض؛ فمنذ فترة طويلة لم نلتقِ، ويرمق أحلام بنظرة لوم ويخفيها بابتسامة مشرقة يخص بها ليليان التي تتلقفها منه بود وهي تخفي سخطًا لملاحقته أحلام بنظراته المعتادة وهي تنتبه جيدًا لتعمد أحلام أن تنظر بعيدًا عن مجال وجوده فتنظر إليها تارة وأخرى لرولا التي قالت:

- ولم لا نحدد وقتًا ونتقابل فيه جميعًا، أنا وأحلام معًا كل يوم ولكن "مسيو عزيز" غائب عن المركز منذ فترة ولدي بعض المسائل التي أود أن أستوضحها منك.

تنصت ليليان بترقب محتفظة بابتسامة هادئة وتتقلب في عينها مشاعر مكتومة في حين يرحب عزيز بفكرة رولا:

- أنا متواجد في المركز طوال أيام الأسبوع خاصة وأن مواعيد سفري إلى الخارج لم تحدد بعد من قبل إدارة المركز.

رولا: عظيم! اليوم في موعد الغداء؟

- بالطبع وبكل سرور!

ليليان وأحلام تنظر كلٌّ منهما إلى الأخرى ولا تتحدثان، ثم تقول رولا:

- كما قالت أحلام في أول الممر فور رؤيتنا لكما، إنها صدفة لطيفة ورائعة!

فيلتفت عزيز لأحلام مبتسمًا ويتهلل وجهه ويخصها بابتسامة أمل وأحلام تنظر بطرف عينيها لرولا بخيبة وكأنها نادمة على وصف لقائهم وترمقهم ليليان بنظرة لا معنى لها وهي ترسم ابتسامة على وجهها.

***

يهوي جمال على كرسيه أمام مكتبه وينزع عنه الكمامة ويتنفس بعمق وهو يزفر بضيق وضجر ويعاود استرجاع خاطر يلح عليه فتقطع لحظته طرقات على الباب بجدية:

- ادخل!

تظهر السكرتيرة تدخل وجلة مرتبكة في حين ينظر إليها بسخط واستياء وفي ضيق قائلًا:

- مرات عدة نبهت عليك ألا تدخلي الحالات إلا بعد أن آذن لك، تخطئين فأجد المريض أمامي؛ فتعتذرين ثم يتكرر الأمر مجددًا!

تحاول أن تدافع عن نفسها فلا يسمح لها جمال بالحديث مشيرًا إليها بإصبعه محذرًا:

- تفضلي، واعتبري أن هذا آخر تنبيه لك.
- أيها الطبيب...
- تفضلي إلى عملك.

فتخرج السكرتيرة وهي مرتبكة وتتمم بدهشة وذهول!

ينظر إليها بحنق ويتلفت حوله بضجر وسخط ويحك جبهته بجانب سبابته وتطل في عينه فكرة يتهرب منها ويبتلع ريقه بصعوبة ويغمض عينيه على إثرها بشفقة وغضب ثم يهب واقفًا وهو يلتفت حول مكتبه مرتبكًا لا يدري ماذا يفعل تحديدًا فيتوقف في مكانه وينظر بتطلع في اللاشيء ويظل يزفر بضيق وغضب وفي سخط يرد على طرقة مباغتة على باب غرفة الكشف دون أن ينظر ناحيته:

- ادخل!

السكرتيرة من جديد:

- أيها الطبيب، لم تأذن لي بدخول الحالة التي عليها الدور في الدخول!

ينصت إليها بضيق ثم يتراجع قليلًا وينتبه إلى غفلته أن ينبهها بالفعل، وبنبرة صوت أهدأ من السابقة يقول لها:

- الجرس تقريبًا معلق.

وبيد مرتعشة يحاول تجربته فيصدر صوتًا مدويًّا في المكان فتنظر إليه السكرتيرة بدهشة واستغراب فيتجنب جمال الالتفات ناحيتها ويقول لها بصوت واهن رتيب:

- أدخلي الحالة الجديدة.

فتخرج السكرتيرة في هدوء فيقف جمال في مكانه يرفع بصره قليلًا بأسى وتأثر...

***

في ضوء خافت يجلس جمال منفردًا بنفسه غارقًا في أفكاره ثابتًا في جلسة تحت المصباح في جانب من الصالة ويلف المكان هدوء تام من حوله بعد مضي وقت وهو شارد بعيدًا، جمال ينتبه إلى جلوسه وحيدًا في الظلام من ذلك الوقت فينظر حوله بدهشة وذهول متسائلًا فيما بينه وبين نفسه لِمَ يلح عليَّ طيفها، ولم غدت حياتي بلا مذاق ولا قيمة بلا وجودها؛ فلا أعرفها إلا من شهور قليلة رأيتها فيها مرات تكاد تكون معدودة بالفعل، ماذا فعلتْ بي!

يزفر بضيق وفي نبرة التماس حد الإلحاح وكبرياء جريح لمَ لا تأتي، ألا تجد سببًا تختلقه، أم أنها لا تريد! وبنبرة صوت أهدأ لها الحق في أن تأتي أو لا تأتي.

ويصمت للحظات يتخبط في حيرته واضطرابه كمن يرفض حالة الألم التي تعتريه فهو على ما يبدو لم يتأكد بعد من سبب ضيقه وانفعاله السريع، يكاد يتخيل أي سبب آخر إلا أنه وقع في الحب وأنه يفتقدها بشدة وقد تعلق بها قلبه ولا يطمئن هذا القلب إلا برؤية من يهواه، ثم يغمض عينيه بقوة وفي انفعال ويزفر بضيق ساندًا رأسه براحة يده وتدور عينه في المكان بحيرة وهو ما زال يدفع الخواطر بعيدًا عنه بلا جدوى.

شيء واحد هو الثابت الذي يصف حالته أنه منفعل يكاد يختنق من شيء، وغارق في خواطره يبحر في حالته تائهًا!

***

نهى تتمدد على سريرها في جو خافت تلمع عينها بالدموع وهي تنظر باتجاه مكان جمال الخالي بجوارها على السرير تاركًا خلفه آثار نومه من لحظات على الوسادة والغطاء المرخي مكانه والمنبسط فوق نهى ومنسدل من مكانه لأثر تمدده في مكانه من لحظات ليست طويلة ولم يطل بقاء جمال بخارج الغرفة، فيدخل وهو يجر رجليه فتتظاهر نهى بأنها نائمة وتغط في نوم عميق.

يتمدد جمال في مكانه ثانية ويجذب الغطاء عليه فتتحرك نهى في مكانها متظاهرة بأنها قد قلقت فتحتضنه وتلتصق به وهي تعطيه ظهرها فيلتفت جمال عنها بجانب عينيه وهو ساخط ويتجاهل حرارة جسدها ونداءها الصامت للقاء جنسي فوري، يبدو أن إلحاح صوت القلب يعلو على الشهوة، ربما هذه المرة لم تسكن نبضات قلبه بعدد عدواته في رحم نهى، نبضات قلبه تزداد ودفعات بداخل نهى تتلاحق فلم لا يلجأ هذه المرة إلى جسدها هل تمكن الحب منه وغدا إرضاء القلب أقوى من إغرائه بالنسيان وإخماد نداء الروح فلم لا يجرب تلك المرة أيضًا ويكرس انتصاره في مواجهة مشاعره بالوثب فوق امرأته بالجنس يخدر للحظات ويروى للحظات أطول ولكن القلب لا يعترف بذلك ولعل هذا ما أدركه جمال مؤخرًا ولكنه كرجل يوقن ويلجأ إلى معالجة آلامه وانكساراته بممارسة الجنس هكذا هم غالبية الرجال يفرون من خيباتهم ويستعيدون عروشهم المحطمة بإحراز هدف في رحم امرأة أي امرأة ولو تخيلها، إنه مخدر أكيد ونصر سريع ليت كل النساء تعرف هذا وتلجأ إليه لعل ذلك يخفف من وطأة الآلام المبرحة التي تتجدد عليهن وتستهدف قلوبهن، ولا غرو فقليل من النساء يفقهن شريعة الرجال في التعامل مع مختلف أمور حياتهم الخاصة منهم والمتعلقة بالهروب من الهزائم والتصدي للإحباطات لو كانت بقيتهن تعلم لقل عدد النساء قتلى لوعتهن وأحزانهن التي يتسبب في أغلبها بعض الرجال، ولكن إن صارت النساء تحذو حذو الرجال في هذا الصدد لحرم الكون من نبضات

قلوبهن التي تدق حبًّا وعطفًا واشتياقًا؛ المرأة قلب الكون النابض فإن تجاهلت بوصلته واستجابت للطين فقد الكون حياته ومعناه الأسمى والأعلى وزهقت روحه، فالمرأة هي القلب النابض للكون.

استسلم جمال للنوم هروبًا من ألمه وحيرته، وباتت نهى باكية وكرامتها تنزف بغزارة.

***

بين أروقة المكتبة عبرت أحلام بعينها عشرات الكتب الموضوعة في نظام وفن على الأرف، تفتش بعينيها عن المزيد من كتب بعينها، تبحث عنها وهي تحمل كتابين متوسطين في يدها وعينها تمر على عناوين الكتب سريعًا وتتوقف أمام بعضها وترفع كتابًا وتقرأ ما على الغلاف ثم ترجعه إلى مكانه.

تسير إلى عمق المكتبة بخطوات ثابتة وفجأة، تجد أمامها جمال فتغمض عينيها تظن أنها تتخيله فتغمض عينيها وتفتحها ثانية وهو يبتسم ومع عدم تصديقها أنه هو تتسع ابتسامته وتضيء وجهه أكثر وكأنها إشارة إلى شيء يحاول أن يتأكد منه لديها كما قد اطمأن إليه بداخله.

أحلام تنظر في عينيه تفتش عن إجابة سؤالها الذي طرحته على نفسها منذ فترة هل جمال يحبني بالفعل ولم لم يخبرني! وبالرغم من أنه قد أجاب السؤال بينه وبين نفسه إلا أنه يرى إجابة النصف الثاني من سؤاله في عيني أحلام وفي الحالة التي هي فيها الآن أحلام تتأمل عيني جمال التي تفيض لوعة وحبًا وشوقًا فتبتسم مرتبكة وتذوب الكلمات على شفتيها في حين

يستمتع بتلك اللحظة الرائعة التي تتجلى فيها الإجابات الناطقة بحبهما في عيونهم ولا أصدق مما تتبادله العيون؛ فلا تكذب ولا تجمل الحقائق، ثم يشهق جمال بنبرة واثقة قائلًا:

- افتقدتك، غاب معك طعم حياتي وتاهت قيمتها!

تتنهد أحلام بأنفاس متلاحقة والفرحة تطل من عينيها وهي تحاول أن تتمالك نفسها وبنبرة عذبة خفيضة:

- جمال!

وتطل نظرة أسى من عينيه تحمل معاني الاعتذار:

- لماذا استبد بنا الخوف فابتعدنا! إنكار الحب مؤلم والهروب منه ضياع.

- ربما لأنه جاء في الوقت غير...

- ومتى وقته، بعد مرور العمر!

تلمع الدموع في عيني أحلام ولا تتكلم يبدو أن جمال قد وضع يده على جرحها وضغط بكل قوة فارتبكت واهتزت يدها فسقطت الكتب من يدها على الأرض فأيقن جمال أنها هي الأخرى تهرب فانحنى على يدها التي اهتزت وهو مشفق عليها واضعًا قبلة فوقها وباليد الأخرى رفع الكتب وقدمها إليها وهي واقفة مكانها ثابتة تخفض عينها وهي تقول بنبرة صوت مختنقة:

- لم أقصد!

- لم تقصدي ماذا! وإن قصدتِ فهل يتوجب على كلينا الاعتذار، لم كل هذه القسوة على أنفسنا لماذا نهرب يا أحلام!

- لأن هذا الحب سيشقى به غيرنا يا جمال!

بحزن متلفتة حولها:

- لا أريد لامرأة مثلي أن تتعذب حينما تشعر أن في حياة زوجها أخرى، لا أحتمل هذا ففضلت أن أهرب على أن أكون تلك الأخرى والسوط الذي يجلد قلب امرأة أخرى.

وأمام جلد الذات الذي توغل فيه أحلام تجاه نفسها يستجمع جمال نفسه ويقولها بكل تأكيد وفي نبرة صوت حازمة وجازمة:

- ولكني أحبك أنت فقط!

تتلقف ما قال بصدر منشرح وقبول عميق فتتأمله بترقب وكأنها تود أن تسمعها منه مرارًا...

فأردف: كنت في حاجة إلى هذا الحب ولن أفرط فيه!

لم أشعرها يومًا أني لا أحبها وليس من العدل عندما أجد نفسي أحب بالفعل أن أهرب وأحرم نفسي من شيء كنت أتمنى حدوثه والحب اختار الوقت لم أختره أنا أو أنت يا أحلام، لن أهرب منك ولن أتخلى عن هذا الحب لأي سبب كان لست متهورًا لأهدد بيتي بأمر يخصني ولكني لن أكون جبانًا لأحرم نفسي مما كنت أتمناه، أنا أحبك وهذا ما أنا متأكد منه تمامًا!

فهل تحبينني أنت؟

تبتسم أحلام وتتحرك شفتاها ببراءة فيضوي بريق لامع في عينيها ولا ترد وتكشف عن ابتسامة وتتلألأ الفرحة والقبول على وجهها فيبتسم جمال في تأمل لوجهها:

أحبك ولن أنكرها أو أخفيها ولكني خائفة لكونك متزوجًا وهذا كل ما في الأمر.

تمتزج ضحكتاهما كأنها قطرات ندى تتساقط على صفحة نهر جار تحيطه الأحجار الملساء تحت أشعة الشمس تعكس صلابة ورسوخًا وقوة شاهدة على كل العهود تضم في حنو وحرص متصدرة توفير كل الحماية لكل قطرة ندى امتزجت بمياه النهر.

***

ظلت في النافذة المفتوحة حتى ساعات متأخرة من الليل تحرس سعادتها وتبوح للسماء بفرحتها تود لو تشاركها نجومها وكل زهور الكون وفراشاته فرحتها إنها تود لو تحلق في السماء وتغرد، ينبض قلبها بفرحة وتتلألأ السعادة على وجنتيها تمني نفسها بأيام من السرور والفرح.

أحلام من الأشخاص الذين ينهلون من سعادتهم أولًا بأول لا يدخرون جهدًا في أن يعايشوها لحظة بلحظة لا تعترف بما يتبقى لغد ربما عدم ثقة منها في غد، هذا الغد الذي يأتي وفق أهواء الآخرين تنكب علينا مفاجآتهم وردود أفعالهم يجب أن نعيش أوقات فرحتنا ولا نفكر في غد،

فربما ستأتي معه سعادة أكبر تغمرنا لوقت أطول وتتجدد دفعات منها، إن سعادتنا الحالية تلح أن نعايشها لآخر قطرة وبكل لحظة تحبو فيها نحو أرواحنا ونفوسنا نمتلئ بها رويدًا حتى تملأنا عن آخرنا، نوقن ونثق في قدرتنا على الاحتفاء بها وتقدير قدومها.

يجب ألا نخيب أمل السعادة فينا بسوء استقبالها أو بإساءة الظن في رحيلها الفوري وبقائها المؤقت غالبا فتلتمس مني لحظات السعادة العذر فأنا طالما احتفيت بها وهيأت نفسي لقدومها فلم تأتِ ولكن حيث إنها أتت فأهلًا بها، يجب أن تعلمي أيتها الفرحة الآتية آليا بتوقيع القلب، أني أحتفي بك في أي لحظة تقصدين فيها اتجاهي وأرجوك أن تترددي عليَّ كثيرًا كثيرًا ولا تطيلي غيبتك، أنا أصبر على ما يمر بي في أمل أن تأتي أنت لتجلي ما بداخلي، أنت طبيبي وطالما بحثت عن معناك وأسبابك وحاولت كثيرًا أن أستحضرك إلى دربي وإلى باب بيتي وقلبي هل يجب علينا بعد أن بحثنا طويلًا عن أسباب حضورك وقدومك أن نفكر في كيفية ترك عناويننا في قائمة انتظارك لتعلمي كم نشتاق، وأن نفكر كيف نجعل السعادة تختارنا وتفضل المجيء إلينا على الدوام وأن تطيل البقاء، كيف نجعل السعادة تفتش عنا وتعرف أننا ننتظرها كما طال بنا كثيرًا البحث عن كيف نكون سعداء وماهية السعادة، تخيلي أيتها السعادة من فرط حيرتنا وحرصنا على امتلاكك وفرارك السريع والمفاجئ ومكوثك المؤقت لدينا دفعنا إلى أن نتساءل كثيرًا ما السعادة!

نجمة أنت لامعة تتلألأ على جبين السماء وفراشة ملونة ذات أجنحة رقيقة تجذب ألوان الطيف كلما تحركت تتلألأ أشعة الشمس وتتداخل مع ألوانها وتعكس ألوانها، أنت أول يوم في فصل الربيع تغرد فيه العصافير على أغصان الشجر الذي يهزه النسيم الذي يعانق الأجواء، ينثر كل الألوان الزاهية والمبهجة في وجه الطبيعة، أنت ابتسامة في وجه بائس بعد طول غياب، أنت أمل أكيد بعد انكسار حلم أم أنت الحلم والأمل، أنت الفرحة بعد دموع الألم أنت قطرة الماء بعد ظمأ طويل أنت العطر الفواح بعد حر مثخن بالصهد أنت الضياء في نفس جريحة أنت الومضة التي تزور النفوس والأرواح والقلوب على عجل، أنت حلمنا ومقصدنا من منا لا ينتظرك ولا يفعل ما في وسعه وأكثر لينعم بك، أنت نعيم أهل الدنيا وجنتهم المستحيلة، أنت الظل الذي يختفي ما إن يظهر، أنت الحلم الذي ندرك هيئته وعندما ننام لا يأتي، أنت السراب الذي نتبعه ونتسابق على اللحاق به كلنا نتسابق والقلة تنجح.

تتنهد أحلام بانتباه بعد غفوة في أحضان الفرحة تطالع السماء متسائلة هل شاءت الأقدار أن يطمئن هذا الفؤاد؛ فأصبو إلى ما أحلم به وأحققه أم أني بصدد لحظات خاطفة من السعادة، أهبط إلى أرضي مجددًا، أحلم ثانية وأتحين الوقت ليكون لي ما أريد وأتمنى. تتسلل أحلام إلى الداخل بعدما أحكمت غلق الشباك فتقصد سريرها، تتمدد فوقه بهدوء على ظهرها، وتذهب إلى الأحلام بعيدًا وتتصاعد أنفاسها كعطر يفوح من زجاجة لم

يغلق غطاؤها تتصاعد أنفاسها ويعلو صدرها ويهبط كأنها تتنهد وهي تضحك وغطت في نوم عميق، ولف المكان من حولها نسائم الرضى أخيرًا والطمأنينة، فنامت على فرحة غامرة ملأت قلبها.

في الصباح تبدو أحلام وكأنها خلعت من عمرها نصفه، تبدو رشيقة أكثر من اللازم في مشيتها، نضرة البشرة لامعة العين، شعرها لامع مسدل على كتفيها حتى ملابسها ضيقة تلتصق على ثدي ناهد وأرادف ممتلئة باستدارة كجوانب القمر، تمشي كفراشة تتأرجح على أوارق الزهور تتنهد في ارتياح وسرور وانشراح وتهرول باتجاه غرفة كريم تنادي عليه قبيل الغرفة بخطوات كعادتها مرددة النداء ثلاث مرات ثم تعود إلى الحمام مسرعة تغسل وجهها وتخرج متجهة إلى المطبخ تعد الإفطار بسرعة وفي خفة وعينها على الساعة على منتصف الجدار المواجه للمطبخ تميل برأسها من خلف الستارة وتلمح الساعة السادسة والنصف فترتبك وتشرع من تجهيز الإفطار وتنادي على كريم مجددًا الذي تسمع همهماته من ناحية غرفته، تحمل صينية الإفطار وتتوجه إلى الصالة وهو خارج من غرفته يدفع بقايا كسله:

- صباح الخير
- صباح النور، بسرعة سنتأخر!
- لا تقلقي!

ويتوجه كريم إلى الحمام ليغسل وجهه ويديه ويلحق بها وهو يجفف يديه جيدًا ويلتقط قطعة خبز محشوة بالجبن ويحاول أن يهم ولكنها تمنعه

فيجلس مجددًا سعيدًا بما بدا عليها من حالة أفضل، تتناول إفطارها في نهم ووجهها مورد ومشرق منظرها وهي تتناول الإفطار وهو ينظر إليها مبتسمًا في حنو يغريه بأن يلتقط المزيد ويقضم بنهم فتنتبه أحلام لإقباله على تناول الطعام فتبتسم وهي تربت على كتفه بحب وحنان وتقول:

- ألديك درس اليوم بعد المدرسة مباشرة؟
- درسان، واحد تلو الآخر.
- مشغول إذن، وسوف تعود إلى البيت متأخرًا!
- نعم، لكن لم! ستخرجين؟
- لا أدري، لم أقرر، سوف أتصل بك وأخبرك.

يومئ برأسه وينهي إفطاره ويهرول باتجاه غرفته، فتقوم أحلام هي الأخرى عن المائدة وترفع الصينية وتتوجه مسرعة إلى المطبخ.

***

تتحدث رولا إلى عزيز في آخر الردهة، فتظهر أحلام من بعيد فتلمحهما فترجع سريعًا من حيث أتت وتتوجه إلى مكتبها ثانية وهي مرتبكة حائرة وتغلق خلفها الباب وتجلس ثانية إلى مكتبها لا تدري ماذا تفعل، أتظل حبيسة غرفة مكتبها ولا تتجه إلى المقهى في موعدها المعتاد لتتناول شرابًا أو تتناول شيئًا خفيفًا، ثم قطع عليها سيل فكرها وحيرتها عزيز الذي دخل الغرفة وأوصد الباب خلفه وهي كما هي في مكانها، تأملها بعتاب وإعجاب

دفين وهي تهرب من عينيه فاستجمعت شجاعتها وقالت في استنكار ممزوج باللطف المتصنع:

- أهلًا "مسيو عزيز"، كيف حالك؟

عزيز بلوم:

- لم تهربتِ أمس من اللقاء المتفق عليه؟

باستغراب متصنع:

- متفق عليه!

عزيز يقترب منها خلف مكتبها وهي تقف مكانها متوجسة متوترة فيقترب أكثر وعينه مليئة بالعتاب:

- لماذا تتهربين مني يا أحلام هكذا!

ويتأملها باشتهاء ورغبة، تتحاشاه فترد ناظرة أمامها بثبات وهدوء:

- ولم سأتهرب منك، هل صدر منك شيء يدفعني إلى الهرب!

يتنهد عزيز، وبأسى يقول:

- ليليان دائمًا ما يروق لها أن تظهرني لكل امرأة في محيطي بأني زير نساء!

تلقت أحلام التصريح باستغراب تخفيه نظرتها بالعبث في الكتب والأوراق أمامها على المكتب ولا ترد.

عزيز بإلحاح والتماس وتأثر:

- لا تصدقي إلا ما ترينه مني هي دائمًا ما تصنع الحواجز بيني وبين الأخريات، إنها امرأة غيورة.

أحلام تنصت دون رد، عزيز يقدر صمتها ويتفهمه جيدًا ولكنه ينتظر منها أن تقول ثمة ما يهدئ من هواجسه وحيرته التي تتضاعف في عينه، يترقب كلمة منها، ولكنها تظل صامتة فيطأطئ رأسه بتأثر وبنفاد صبر، ثم يخرج في هدوء في حين تراقبه أحلام بعينها وتتنهد الصعداء وهي تجلس في مكانها ثانية وعندما تسترجع ما قاله تنظر في اتجاه خروجه بشيء من الحَيرة المؤقتة وكأنه قد استوقفها شيء مما قال ولكنها تشكك فيه وتقصيه جانبًا، تتمسك بمنحى وحيد في علاقتها بليان وزوجها عزيز، تتجنب الاقتراب منهما وعدم البوح بما لديها حتى لا تخسرهما، ولكنها أحيانًا ينتابها شك في ليليان وعزيز في علاقتهما خاصة وأن ليليان سبق وحملتها المسؤولية عن تودد عزيز إليها، تمضي فيما قد عزمت عليه أن تبعد عزيز عنها بأي شكل، لا لمعرفتها أنه قد يكون كما وصف نفسه على لسان زوجته بأنه زير نساء فلا يهم هذا، ولا يهم إن كان بالفعل يحبها فلن تسمح لنفسها بالتوقف أمام هذا وتتأكد هل هو يحبها أو ما الذي دفعه للتودد إليها رغم صدها المستمر له، ولم تلك اللوعة في عينه والعتاب وشيء من السرور يحل في عينيه كلما أشرقت عليه بنورها، كل هذا تُسِرُّه أحلام عن وعي تام منها، فهل للحب، أو للخوف! ولمَ الخوف، فلم تلهث خلفه يومًا وزوجته تعلم ذلك، لكنها لم

تفتأ تعلن الحرب على كل من تقترب أو ترحب بتودد زوجها إليها لتنزل العقوبة بها، دون زوجها!

تنهدت أحلام الصعداء ولكنها لم تخرج من مكتبها أيضًا ربما حتى لا تتلبس في مجال يمطرها عزيز فيه بالنظرات على مرأى من ليليان ففضلت البقاء في مكتبها تقلب في أوراق ملف ضخم على سطح مكتبها في حين تظهر ليليان و"مسيو ميتران" يهبطان من على السلم المؤدي إلى ردهة المكاتب وهما يتجاذبان أطراف الحديث في جدية وتفهم بلغة فرنسية شيقة ومتناغمة.

تلتقط أحلام متن الحديث وهي تفتح الباب فتتفاجأ بهما مبتسمين لها بود، يدخلان فتتبعهما مبتسمة، فتتركهما متجهين يمينًا حيث مكتب "مسيو ميتران" الخاص وتتجه يسارًا حيث المقهى.

تجلس في مكانها بجوار النافذة المطلة على الحديقة من الداخل، يتقدم النادل في الحال ويضع أمامها قطعة من الكيك وكوب نسكافيه وكوب ماء، فتقرب النسكافيه وترشف منه وعينها مليئة بالخواطر والأفكار وتتحاشى الالتفات حولها خشية أن ترى عزيز ثانية ولكن هذه المرة تلمح رولا تتقدم من بعيد يتهلل وجهها كأنها كانت تبحث عنها، فتبتسم أحلام وكانت تود لو لم تشاركها هذا الوقت من أوقات الراحة بين ساعات العمل حيث إنها لا تهدأ ولا تكل من الحديث عما يشغلها، تتردد أحلام بين الاستعداد لدعوتها للجلوس معها أو أخذ وجبتها والتوجه إلى مكتبها على غير عادتها فتظل

مكانها صامتة للحظة لم تفهمها رولا التي جذبت كرسيًّا وجلست أمامها حول الطاولة ونادت النادل فانتهزتها فرصة صب جل انباهها إلى المشروب وتناول الكيك ولم يتحدثا معًا مكتفين بتبادل الابتسامات، وتصدح الموسيقا فرنسية ناعمة في المكان (أغنية رومانسية فرنسية قديمة يتمايل مع أنغامها كبير النادلين القدامى بالمكان) فرأت أحلام أن تستمتع بالموسيقا ومنظر الشجيرات والزهور من نافذة الحديقة وهي تتناول وجبتها في حين تجنبت رولا الدخول معها في حديث وظلت صامتة تتناول طعامها وهي تنظر إلى الجهة الأخرى على استحياء.

أحلام تنعتق من أجواء المشاحنات في المكان عن عزيز ورولا وتغيب مع كلمات الأغنية وتبتسم بسرور وفرح وتنفصل تمامًا عن المحيط مسترجعة ما قالته مع جمال أمسِ فتبتسم بفرح وتغدو لحظات الراحة أكثر روعة وسكينة بالنسبة إليها.

***

تفتح باب غرفة الكشف بهدوء وتقول بنبرة دافئة مساء الخير أيها الطبيب!

يتهلل وجه جمال ويقوم من مكانه على الفور ويتجه ناحيتها مباشرة، تغلق الباب خلفها وتظل واقفة مكانها تتأمل جمال بشوق ولهفة وهو يتقدم خطوات بتؤدة ونظرة عينه ثابتة يتأمل وجه أحلام بهيام تقطع سيل نظراتهما في دلال:

- كلما جئت هنا تهت مني فنسيت السؤال!

يرفع حاجبيه عاليًا ويفتح عينيه اللتين تفيضان بالحب وبترحيب، ويهز رأسه منتظرًا السؤال:

- طبيب الأسنان...

فيقهقه قبل أن تسأل وكأنه يتوقع ما ستقوله، وبدهشة من ضحكته تبتسم وهي تتأمله بحب مردفة:

كيف يتصرف طبيب الأسنان إن داهمته آلامها!

جمال مقهقهًا لا يرد وما زال يتأملها في وجد؛ فتربكها تلك النظرات ومن مكانه يرد فتقترب باتجاهه خطوات:

- إلى زميل بالتأكيد وإن لم يلزم الأمر قد أصرف لنفسي بعض المسكنات العاجلة على حسب سبب الألم.

- وما أسباب آلام الأسنان غير المألوفة؟

- هل تعلمين أن الألم النفسي قد يسبب آلام الأسنان؟

أحلام تنصت مندهشة فيهز جمال رأسه مؤكدًا:

- حقًّا، ففي حالات الحزن الشديد تتأثر الأسنان بقوة لأن المناعة وقت الحزن والألم النفسي تضعف بشكل ملحوظ ومن هنا تبدأ كل عوارض مواطن الضعف والهشاشة في الجسم في الظهور والكشف عن عجزها والمقاومة بمفردها وخط الدفاع عنها معتل.

بإعجاب وتردد:

- معتل، وصفك دقيق جدًّا يا جمال!

يلتقط جمال اسمه منها على شغاف القلب فيبلع ريقه بنشوة ويغمض عينيه بوله مستشعرًا بثقة قربها فور تلفظها باسمه.

جمال مقاطعًا وكأنه يلتمس أن تقطع على نفسها عهدًا:

- لكنَّ المحبين لا تؤلمهم أسنانهم!

فتبتسم أحلام ابتسامة عريضة، فيردف:

- ولا كل أعراض أو مظاهر أو مشاعر الألم، لذا يجب أن يقي المحبون أنفسهم مسببات الألم، بأن يعملوا على تقوية مناعتهم ضد كل شيء هل يمكننا فعل ذلك، هل لديك الاستعداد!

ترمق أحلام الساعة بعينيها وتبتسم دون أن ترد وهي مدركة لجو العمل في العيادة فتقاطعه على أمل استكمال حديثهما وهي تتأمله بحب وتهم بالانصراف فيداعبها:

- أسنانك، حالها تمام؟

- أكيد يا طبيبي!

فيضحكان بمرح وتهم أحلام بالالتفات لتغادر العيادة فتتعلق عينا جمال بها.

في خلال تلك الأثناء تجلس السكرتيرة تحصي أسماء الحضور وتظهر من بينهم داليا التي تتظاهر أن أسنانها تؤلمها فتقشعر جبهتها وتعض على شفتيها بضيق وامتعاض وتغلق عينيها مرارًا وعينها مصوبة على السكرتيرة التي تراجع قائمة أسماء الحالات، في أثناء ذلك تخرج أحلام من غرفة الكشف وتقع عينا داليا عليها فتتفحصها وكأنها تشبه عليها وعلى الفور تقوم من مكانها وتتجه فورًا إلى مكتب السكرتيرة وتقوم بمراجعة القائمة بلا جدوى وتهز رأسها كمن يحاول تذكر شيء فتتوجه إلى السكرتيرة وتسألها بحذر، ثم تتراجع خشية أن تنتبه السكرتيرة لشيء فتسألها في عفوية متصنعة:

- كم اسمًا قبلي؟

فتنظر إليها السكرتيرة بدهشة، وترد بما اعتادته:

- عدد كبير!

- ما رقمي؟

- رقم ٢٤، والحالة رقم ٩ كانت في غرفة الكشف، وأنتظر تنبيه الطبيب لإدخال رقم ١٠، باقٍ على دورك ١٣ حالة وأنت رقم ٢٤!

فتنكفئ داليا على الفور لتقرأ اسم الحالة رقم ٩ هنا تتذكر من تكون التي كانت بالداخل فتبتسم وتسأل السكرتيرة بدهاء:

- الحالة التي كانت مع الطبيب كشف أو خلع؟

فتتأملها السكرتيرة بضيق ونفاد صبر فتتوقف داليا عن الحديث وتجلس صامتة في مكانها مجددًا!

يقطع همس الأصوات في غرفة الانتظار صوت جرس قادم من غرفة الكشف فتنادي على الفور السكرتيرة على الحالة رقم ١٠ بالاسم وقد وجدتها داليا فرصة للانصراف.

***

في جانب من الصالة تقف نهى منتصبة في مكانها تحملق بعينها وهي تنصت مشدوهة متحدثة في الهاتف، تتلقى ما يتلى على مسامعها والتعجب والغيظ يتطايران من عيونها ويحتقن وجهها غضبًا مما تسمع، وتهز رأسها في استنكار وذهول، ثم تصيح:

- أحلام، هو الاسم!

بنفاد صبر وحنق شديد: أحلام ولي الدين؟

تنصت بتململ وغضب مكتوم وهي بالكاد تتمالك نفسها من الغضب!

ما زالت تنصت وكلما أتى جديد من الكلام تثور أكثر وتنظر من حولها شزرًا وودت لو لم تسمع كل ما سمعت، تلمع الدموع في عينيها وتلقي بالهاتف على الأريكة وتلقي بنفسها بجواره وتنكفئ على ركبتيها وهي تزفر بضيق وغضب وترجع ظهرها إلى الخلف تنفث بغيظ وحنق!

***

تمسك داليا الهاتف شاردة مهمومة ويتأملها وليد بلوم واستنكار ليقطع شرودها:

- أنت تضرينها بهذا الشكل، إن كنتِ تهتمين لأمرها لأخفيت ما عرفتِه يا داليا، هل هي سعيدة الآن وفخورة بك!

تدافع عن نفسها متأثرة لصديقتها:

- هو من عليه أن يشعر بالخزي لأنه يخون زوجته ويعرف عليها أخرى كانت زميلة لها في المدرسة!

- زميلة في المدرسة!

- ضاقت الدنيا بالطبيب فلم يجد إلا واحدة كانت معنا في المدرسة!

- وليكن، لِمَ يلزمك إخبارها؟

- لم! لأنها كانت كالمجنونة!

- والآن!

تلتمس العذر لنفسها قائلة:

- على الأقل عرفت وتأكدت، فقد كانت تعرف الاسم واليوم فقط...

- حضرتك أكدتِ لها بالمعلومات الوافية!

داليا بدهشة:

- وليد!

وليد بحزم:

- أفندم!

- أنت بهذا الشكل تهدمين بيت صديقتك.

- أنا!

وليد محاولًا أن يختصر لها الكثير من القول فيقول لها مباشرة متسائلًا وهو موقن بالرد:

- هل يقيم معها علاقة؟

- لم يصل الأمر لهذه الدرجة!

- كيف عرفت!

داليا بيقين وعلى استحياء:

- زوجته هي من قالت، ثم إن أخلاق جمال لا تصل به إلى هذا وأنت تعرف.

وليد بعتاب شديد:

- عظيم!

- ولكنه يعرفها على زوجته.

- يعرفها!

داليا باستنكار واتهام:

- يحبها ويعرفها على نهى!

- الرجل بريء من الخيانة فلم تنبشين في المستور أنت وصديقتك!

- وليد، صديقتي!

وليد مصححًا من لهجته في الحديث عنها على غير اقتناع:

- السيدة نهى.

- ما بك يا وليد، أنت تلومني أنا، أحرى به أن يخلص لزوجته!

وليد بنبرة هادئة: وماذا فعل المسكين؟

- يعرف أخرى، يحب أخرى على زوجته!

وليد بهدوء جم ونبرة تأكيد:

- وهل هذه خيانة!

ينزل تساؤله على مسامعها كأثر الصدمة:

- طبعًا خيانة!

وليد بنبرة الصوت الهادئة:

- الحب ليس خيانة.

- بل خيانة، خيانة!

- الحب ليس خيانة.

رده يصيبها بالصدمة فتهتز في وقفتها وتبتلع رقيها بغصة شديدة وهي تتأمله بلوم وذهول وهو ثابت على رأيه.

- وليد! أرجوكَ لا أريد أن أكمل الحديث في هذا الموضوع.

وقد لمح صدى رأيه في عينيها فأشفق عليها:

- كما تشائين ولكن هل يروق لك الآن ما وصلت إليه حالة نهى بعدما عرفت!

- أرجوك يا وليد!

قالتها بنبرة حازمة وبضيق وهي تتهرب بعينها من وليد؛ لقد صدمها رأيه في وضع جمال على ما يبدو.

ينظر إليها متحاشيًا تكرار ما يبدو له أنه قلب الموازين بداخلها فيصمت ويؤثر السلامة، وما زال رأيه يولد الغضب والحيرة والتساؤلات في عيني داليا وملامح وجهها فتهز رأسها بضيق وتوتر وتتجه إلى الداخل مذعورة تجر قدميها، تود لو أن رأسها فيها!

***

في المساء في جوف الليل تلتفت نهى إلى جمال الممدد بجوارها على السرير وهي تتحاشى النظر إليه مدركة لنومه بجوارها تنصت لأنفاسه تستشعر وجوده بجوارها تتصلب في مكانها تتحاشى أن يميل عليها بعفوية أو أن تقترب هي منه، عينها التي يسكنها الحزن وملامح وجهها تميل بهما إلى الأمام خشية أن يتقلب فيحتك بها، تتلبسها حالة رفض ونفور كبير تتمدد على طرف السرير بحذر تضجر من أنفاسه، تبتلع ريقها بغصة وصعوبة تحاول أن تتظاهر بالنوم دون جدوى في حين جمال هو الآخر مستيقظ ولكنه يغمض عينيه ويستشعر كل حركاتها ويدرك أنها يقظة لم تنم ويتجنب هو الآخر أن يصدر منه ثمة ما يدل على أنه يقظ فيظل يتنفس ببطء وإلا يزفر ويغفو بعينه ويبدو قلقًا متوجسًا ويحاول أن ينام هو الآخر فيلوح في خاطره طيف أحلام، فيبتسم فجأة بعفوية ويتسلل إلى فؤاده وشعوره ينعكس في عينه ويجتاحه شعور بالسرور والسكينة والفرح فيغرق فيه لبعيد مفصولًا عما هو فيه وحوله على عكس ما كان فيه من لحظات قليلة!

***

تقتحم داليا حزن نهى وانكسارها المطبق على نفسها وتباعد لحظات الأسى التي تشعر بها وتقول بنبرة حنق عليه:

- تقريبًا أحضرتُ لك كل شيء عنها!

بصوت مختنق بالبكاء:

- ما فيها جعله يحبها وهي في نفس عمري، وأسمع أن الرجال يقعون في حب الأصغر!

إنها أرملة ولديها ولد شاب، هل لأنها تعمل! ولكنه هو من رفض أن أعمل قائلًا إنه لا يحب أن يعود من عمله يومًا ولا يجدني أنا أو أولادنا، رغم أنني ألححت كثيرًا أن يقبل بعملي لكنه رفض وقال عندما أقصر في طلب لك اخرجي للعمل، مرارًا ذكرته أني أريد أن أعمل لأني أحب أن أعمل وأستشعر قيمتي وألمس ما أضيفه في مكان عملي قال إن نجاحك في تربية أبنائنا هو الإضافة الأسمى لكل ما حولك.

ولكني لست سيدة منزل عادية أنا رشيقة وأنظم وقتي جيدًا بين الذهاب للتمارين وتربية الأولاد والاهتمام بالبيت وبه ولا يأتي يجدني مهملة في مظهري أنا أهتم به، ماذا كان يتوجب عليَّ فعله وتراخيت فيه!

تخصه نهى بنظرات الضجر كلما ذكرت داليا اسمه في حديثها، داليا التي تتأملها بنظرات شفقة وأسى، وبنفس نبرة صوتها الحزينة:

- وإن كنتِ ملاكًا فقد يغرم بشيطان!

نهى تصمت هنيهة ثم تستأنف حديثها وهي تكتم غضبًا عارمًا:

- كيف، ومتى أحبها، وهل لو كان تزوجها هي كان سيحبها أيضًا، أم كان سيحب أخرى قد تكون أنا مثلًا!

في حالة تبادلنا الأدوار، هل سأكون حينها سعيدة إن أحبني أنا، ما الفرق بين شعوري تجاه رجل تزوجني بلا حب وبين رجل متزوج يحبني أنا!

ثم تهدأ:

- لم أعرف هذا الشعور!

شعور أن يحبني رجل ويكون بجوار امرأة عابسًا رغم أنه من لحظات كان يهوي فوقها يطفئ شهوته فيها ثم يركن بجوارها يستطلع حضور من يحب!

تتلقف داليا كلامها بضيق لحالها وتتأفف بشدة وتهز رأسها ضجرًا وسخطًا، ثم تكمل صديقتها:

- هل وقتها سأكون سعيدة بحبه وما شعور زوجته وقتها!

هل أخطأت حين تزوجت رجلًا على غير حب ولم يطرأ في ذهني أنه قد يحبني في أي وقت فيما بعد!

داليا منزعجة:

- ماذا تقولين، هل تعطينه أنت الأخرى الحق؟

تلتفت إليها نهى مستغربة من حديثها الذي انطلق منها على خلفية رأي وليد زوجها في أمر جمال وحبه.

تتراجع داليا وتتهرب بنظرها عن وجه نهى الذي يتفحصها بفضول تنتظر الرد.

نهى ثائرة:

- أي حق!

ومن تقصدين بموافقته للرأي، صفاء؟

فتدافع داليا وتجدها فرصة للهرب من التصريح بهذا الآخر الذي له الرأي نفسه بصدد مسألة حب جمال هذه:

- لا، ليست صفاء.

- من، إذن!

- بعضهم يرى هذا يا نهى.

- يرى ماذا يا داليا!

- بعضهم، بعضهم يا سيدتي يرى أن حب الرجل ليس بخيانة طالما لم يقم علاقة مع الأخرى!

نهى بمقت وضيق كبير:

- حقراء، كلهم حقراء!

داليا مؤَمنَّة:

- وأوغاد، كلهم أوغاد!

- هل يجد الرجل مشقة في حب زوجته أو لا يروق له الأمر إلا مع أخرى، هل لا يتقبل الحب منها هي هل لا يشبع شغفه ويكفي غروره فلا يرحب به منها ولا يكفيه مهما امتلكت من مزايا ويفتش عنه بعيدًا، لم!

لو أحبني لا أدري حقيقة ما هو شعوري وقتها ولكني غالبًا سأكون أسعد امرأة في الكون أن نعيش أنا وزوجي في علاقة حب.

وباكية:

- أحبها هي، كان يحتاج إلى الحب!
- لمَ سمحت له وهي بلا شك تعلم أنه رجل متزوج!
- لأنها رخيصة بالتأكيد!
- وتبحث عن زوج، هو يبحث عن الحب وهي تبحث عن الزوج.
- وتشتعل النار في أحشائي وأغرق في العذاب والحزن والألم!

ثم تبكي بمرارة...

- يجب أن تلقنيها درسًا قبل أن تبتعد عن زوجك!

نهى مشدوهة ومن وسط دموعها تنظر إلى داليا بترقب لحديثها، فتكمل:

- لقد قلتِ إنها رخيصة، وإلا ما قبلت أن تسطو على حياة أسرة مستقرة وآمنة!
- وهو؟
- قلتِ كذلك كان يبحث عن الحب و...

وتقاطعها نهى في ثورة وغضب:

- هو أيضًا رخيص وحقير وجبان، ألم يدرك أن لديه أسرة!

- هو كما قلتِ، ولكن هل تريدينه حقًّا، أو مسألة كرامة؟

وتتأمل وجهها متسائلة تنتظر الرد:

فتبتلع نهى ريقها وتعلق عينيها بعيني داليا التي توصلت من نظرة نهى إلى الجواب؛

فتهز رأسها وتستقر عند خاطر طرأ توًّا عليها وعينها مليئة بالحنق والضيق وتطل من عينها نظرة من يسترجع ما يصيبه الهم والضيق.

تهرول باتجاههما لاهثة حين تهان بالانصراف عن ردهة صالة التمارين الرياضية، تقترب منهما صفاء وهي تتأمل وجهي داليا ونهى بقلق بالغ صائحة:

- كيف حالكم يا بنات؟

تشيح نهى بوجهها بعيدًا وترد برتابة، وترد داليا باقتضاب متأثرة بما يتدافع في عقلها ناظرة أمامها بوجوم!

تتأملهما صفاء التي تستشف انتهاءهما من التمارين قائلة وهي ترجو بقاءهما بنبرة اعتذار:

- أنا آسفة!

تأخرت عليكما وواضح أنكما قد أنهيتما التمارين...

تقاطعها داليا بهدوء:

الحقي تمارينك حتى لا تتأخري.

صفاء تنظر إلى نهى بقلق وتضع يدها على منتصف ذراعها تستطلع الأمر،

وتنظر إليها بود من بين شجونها:

- ما بك يا نهى؟

- أمرك عجيب، تتغيبين أسبوعًا ثم تأتين لتسألي ما بك؟

نهى بزجر لداليا:

- داليا!

فتكرر داليا بالنبرة ذاتها:

- داليا ماذا!

- إن أسئلتها تستفزني!

صفاء في عتاب وتودد مستشعرة تقصيرها:

- واضح أنني مقصرة جدًّا!

نهى وهي تستجمع نفسها:

- داليا، هل متُّ ولم تدرِ صفاء!

هل سقطت السماء على الأرض ولم تحضر صفاء!

ما بك! أستأذنكما!

داليا تستشعر أن نبرة صوتها ولومها المستمر لصفاء جعلها تستشعر أنها في وضع يستوجب الشفقة وطلب المساعدة فتتأثر وتفضل الذهاب.

صفاء تنظر إلى نهى وداليا وهي حائرة تلتمس العذر بعينها المليئة بالاعتذار والتأثر، وتوقف نهى التي تندفع وهي تهم بالانصراف بإصرار وتقول:

- أنا آسفة يا حبيبتي؛ حقيقة أنا مقصرة في حقك!

داليا بسخرية وهي تنظر إلى صفاء ثم إلى نهى التي تنصت متفهمة موقف صفاء وإصرارها على الاعتذار:

- ثانية يا صفاء!

قالت لك إن السماء ها هي ولم تسقط بعد!

فتبتسم نهى من بين حزنها، وصفاء تنظر إليهما في حيرة مصطحبة داليا إلى مكان الجلوس، ونهى ما زالت واقفة مكانها تصر على الذهاب في صمت.

(١١)

اندفع جمال في طريق سعادته لا يأبه بشيء يوقفه أو يثنيه عن إحساسه بأن نهى قد عرفت بأمر حبه، فما يكتنفه من ألم في بعده عن أحلام جعله يمضي إلى ما يريح هذا القلب ويهدئ النفس ويبهج روحه ولم يخب ظنه فها هي السعادة تفتح لها أبوابها؛ كان كل لقاء مع أحلام يدفعه نحو السماء فيجد نفسه محلقًا في السماء سعيدًا فرحًا سعادة غريبة لم يختبرها منذ كان صبيًّا في أواخر الصبا وأول الشباب عندما أحب لأول مرة يفيض قلبه بالحب والهيام يعمل بنفس مقبلة وأريحية كبيرة والابتسامة لا تفارق وقته مستريحًا حتى في أشد أوقات ضغط العمل باله طويل كما عادته وأكثر إقبالًا على الحياة، يحنو على طفلتيه ويداعبهما ويسكن وخزات ضميره بأن يضاجع نهى أكثر مما مضى، تحتار في أمر حبه ولا يعبأ بكونها قد عرفت بالفعل، غدت أيام جمال وادعة كنهر يتدفق بالماء العذب، يقضي أسعد أوقاته مع أحلام التي كادت تطير من الفرح لا تصدق نفسها أن العمر لن يمر حتى يخصها بما تمنت وبأن تمد يدها لتقطف أمنياتها المتدلية فوق رأسها، كل الأمنيات بدت قريبة ومتاحة ها هو الحب يملأ قلبها وروحها والسعادة ترفرف من حولها لم تعد تخاف من مرور العمر إذن وهل تحقق ما تصبو إليه، هل تتصالح مع الحب وتقطف ثماره وتفوح حياتها بعطر أملها المحقق، تحيا

أزهى فصول العمر فصل الحب، تستشعر أن جمال إنما خلق لها وهو يرى أن لقاءهما تأخر كثيرًا ولكن أخيرًا، أتى أخيرًا!

إن سعادتهما باتت تسير من حولهما تحاوطهما بعناية واحتفاء يكاد اليوم يمر فيخلفه جديد والسعادة تكبر وتفسح مكانها في قلبيهما وتغدق من رياحينها في نفوسهما تكاد أحلام لا تصدق أنه قد حدث ما أرادت أن حبها يكبر ويزهو، أخيرًا أحبت رجلًا حقيقيًّا، رجلًا يبادلها الحب بحب، رجلًا مثل جمال أهلا للحب، تكرر لقاء أحلام بحبيبها فغدت حياتها واحة غناء مثمرة أوراقها وارفة تفوح سرورًا وحبًّا، كانت حياتهما أقرب إلى لوحة، كل ما فيها في موضعه تسير في اتجاهها الصحيح والمنوط بها فثمة أشخاص ولدوا وحظوظهم في الحب وافرة، إنهم بحق أهل للحب تدفق الأمل من جديد في شريان حياة جمال وأحلام، لقد أعادها الحب إلى فتاة ابنة الثامنة عشرة تتألق في فساتين مزركشة ووجنات بحمرة الكرز وشفاه لامعة ممتلئة وعيون تضوي بالبريق والشباب، إنها فتاة صغيرة شابة وجميلة ومشرقة تتدفق إليها الحيوية والشباب ماذا يفعل الحب بأهله إنه يبعث من جديد أرواحهم، ونفوسهم، وقلوبهم.

إن للحب قوة سحرية تجعل الشخص كالمحموم لا يهدأ ولا يريد أن يشفى، يريد أن يظل في حالة حب فقط يشفيه المزيد من الحب ظل الحب يكبر ويتفتح ويتمدد داخل قلوبهم إلى أن غدا نجمًا متوهجًا في نفوسهم وأرواحهم طابت حياتهم بالحب وسكنت أوجاعهم القديمة ولاحت

أمنياتهم المتخفية في ثنايا نفوسهم حان وقت أن يحيا الاثنان في ظل الحلم في عمريهما الحب يغدو وليدًا داخل سياج منيع حسبما أحدثه في نفسيهما وما أمدهم به من وعد جديد بحياة أرحب وأجمل وأمتع!

***

كان جمال متوجهًا إلى العيادة كعادته من ذلك الموعد يتلهف على موعده المتفق عليه مع أحلام تمنى لو يدلف إلى العيادة فيجدها تنتظره هناك مع أنه من سويعات فقط كان معها فابتسم في نفسه على استحياء لتمسكه بأمنيته وخاطره بأن يجدها، غير أنه لم يجدها، فابتسم ودلف إلى غرفة الكشف وسط صدى أصوات الحالات والسكرتيرة تتحدث إليهم في غرفة الاستقبال بالعيادة.

تهبط أحلام من سيارتها أمام مطبعة وتدخل إليها مباشرة مسرعة تحيي مسؤول العلاقات العامة الذي من ترحيبه بها يتضح أنه يعرفها فيختفي إلى الداخل وتظل واقفة لا تجلس، تبدو متعجلة متلهفة ثم يظهر مسؤول الاستعلامات ويشير إليها بالدخول فتبتسم بود فيجلس مكانه وتدخل مباشرة إلى حيث قدم هو، لحظات وتخرج أحلام وهي تحمل كتابًا في يدها وتنصرف مسرعة حتى أنها تنسى أن تسلم على "مسيو حسن" تخرج منطلقة من المطبعة وعيون المسؤول تمتلئ بالثناء والابتسامة متفهمًا ما وراء فرحتها، ثم تدخل السيارة وتنطلق بها تضم كتابها إلى صدرها بيدها اليسرى وتمضي في طريقها.

كريم يتوقف في منتصف صالة البيت يسير جيئة وذهابًا وهو يتكلم في الهاتف:

- أخبرتني أنك لن تتأخري!

ويلتفت كريم وهو يمضي داخل الشقة وفجأة، صوت مفتاح يدار في فُتحة الباب، فتظهر أحلام، وقت التفات كريم إليها مذهولًا يضحك، والهاتف ما زال على أذنه، وعلى أذنها، تدخل وتغلق الباب، وتخرج من خلفها بطريقة المفاجأة كتابًا على غلافه صورة اللاعب البرازيلي بيله، فيقفز كريم في مكانه فرحًا وهي تضحك وتعانقه بحرارة قائلة:

- وعدتك فأوفيت!

- وهكذا أنت دائمًا يا أمي!

- هيَّا، هيَّا جهز حالك لنحتفل يا بطل!

كريم ضاحكًا وعلى استحياء:

- هذا كثير!

- على من!

فيبتسم كريم في حرج، وبنبرة إمارة تقول والدته:

- جهز نفسك جيدًا للاحتفال يا كريم، لقد أنجزت ترجمة هذا الكتاب لأجلك فقط، وقد اتفقت أن أترجم لك إحدى قصص حياة أشهر لاعبي الكرة وها قد فعلت؛ فمن حقنا الاحتفال إذن، فلتستعد للاحتفال الكبير!

يعانقها كريم بزهو وحب فتربت على ظهره بحنان.

***

في صباح اليوم التالي تتوقف سيارة أجرة أمام مدرسة كريم بمحاذاة الشارع الواقع أمام المدرسة وتهبط من السيارة داليا التي تقترب من البوابة وتتحدث مع الحارس الذي يتقدم باتجاهها من الداخل وتوجه له بعض الأسئلة السريعة وتود لو تمضي ولكنه يطيل الحديث معها مما يشجعها على أن تطيل الحديث معه وفجأة يمتقع وجهها وهنا قد حضر البواب من جانب في الفناء بالداخل ويلفت نظره ويستوقفه الحديث الدائر بين الحارس وداليا ويقف على مقربة منهما حاضرًا للحديث دون أن يحرك ساكنًا ولكنه يظل مشدوهًا كلما أطالت داليا في الحديث إلى الحارس الذي يسمعها بأريحية شديدة وكأنه ينصت إلى قصة شيقة، يكاد صوت داليا مع الحديث ألا يتضح لسيطرة صوت ضوضاء الشارع والسيارات عليه ويطول بهما الحديث الذي يتخلله امتقاع وجه البواب ونظرات الزجر لها وللحارس الذي يشجعها لتروي وتدلي وهو ينصت مشدوهًا في ريبة ودهشة متأملًا وجهها، ثم أمام امتقاع وجهها وتأثرها ينظر إليها البواب في حياد ولكن تغمره حيرة كبيرة ودهشة لما تقوله داليا للحارس، يغطي على أصواتهما صوت السيارات والضوضاء في الشارع ثم يرمق الحارس داليا بنظرات دهشة وشفقة وهي تسير خطوات مبتعدة عن المدرسة وتشير إلى سيارة أخرى وتصعد إليها فتغيب في وسط السيارات في الطريق.

لا تدري نهى أن ما قامت به داليا سيعود بالنفع عليها، أم أن فورة غضب أحلام ستمضي في طريقها بعيدًا بعدما تسببت في إيذائها، وهل سيبعد جمال عنها أم ماذا لقد مر أسبوعان ولم يحدث شيء إلى متى سأنتظر وهو يزداد توهجًا وأنا أنطفئ وأذبل من الداخل ماذا أفعل في تلك الظروف لم تفلح على ما يبدو ما أشارت به عليَّ داليا وأقدمت عليه تلك اللعينة التي تسربت إلى قلب زوجي سأحيل حياتها إلى جحيم، وهو يا نهى حقير كيف سمح لقلبه أن يحب أخرى طالما تزوجني فهو ملكي كله ملكي كما أني ملك له فقط لقد أحببته، لِمَ لم يحببني كما أحببته لو أستطيع لخلعت قلبه وجلدته ولكني أريده، أريده لي، سيعود كما كان وكما قالت أمي فورة وستنطفئ ولكني أتعجل انطفاءها قبل أن أحترق، أكاد أجن من فرط التفكير وخيالي لا يرحمني، كيف أحطمها وأهزم رهانه على قلبه هو لي ولبنتينا، وتنظر بشفقة حيث تسمع صوت لهوهما في الغرفة المجاورة على امتداد بصرها وهي جالسة مكانها وتقول في غيظ لم دفعتني إلى كل هذا الغضب عليك يا جمال أعرف أنك تدرك أني أعرف أنك تحب غيري جسدك لي وقلبك هناك معها أريدك أنت وقلبك يا جمال ستكون لي ولن أتركك لغيري أبدًا إنك قاسٍ وحقير يا... لا أقوى على نطقها! كيف أناديك حبيبي وقلبي ينزف ألمًا بسببك ليتك امرأة لتشعر بما فيَّ؛ قد بلغت بك القسوة أن تمضي في علاقتك بها وأنت تعلم أني أعرف أمرك فلِمَ سمحت بذلك لماذا لم تكتفِ بحبي أنا أحبك أعلم أنك... ولكني أحبك هل هي تحبك أكثر مني يا وغد! جعلتني

أقارن حبي لك بحب أخرى لا تقِّل خسة عنك أنت وغد كبير لتوصلني إلى هذه الدرجة من الحنق والحقد والغضب، لا أحتمل أن أراك تتألم، وأنت تعلم أني أتألم لا أدخر عنك الاهتمام بكافة شؤنك وأنت بخلت عليَّ بقلبك، وجرحت قلبي وأشعلت النار في صدري، أنت تنام بجواري فهل تعلم أني لا أنام الليل من فرط التفكير والقلق، تقوم لتلحق بيوم جديد يكبر فيه حبك لها وأنا ناري تشتعل وتعلو كيف تعلم بكل هذا ولا ترتدع!

يسود الصمت لحظات وتنسكب الدموع من عيني نهى وتكتم دموعها وتهتز باكية وهي تضع كفها على فهمها خشية أن تسمع الطفلتان صوتها وهي تبكي وأصوات لهوهما تترنم إليها، فتبكي بغزارة ومرارة وغصة، ثم تلمع في عينيها فكرة؛ فتنظر إلى الهاتف وهي تبتلع ريقها وتهم بإجراء مكالمة وعينها تتقلب فيها الغضب والحنق والوعيد، ثم تتراجع وتجلس مكانها ثانية والدموع تنسكب من عينها مستشعرة هوانها وانكسارها تطحنها الغيرة والأسى تتلفت بعينها من حولها تستجدي حلًّا وبردًا على صدرها المشتعل بالغيرة والغضب والغيظ الكبير!

***

في الصباح في فيلا أنيقة فخمة الأثاث وكأننا انتقلنا بالزمن إلى بيت من بيوت أحد أثرياء الأسرة المالكة وتظهر بعد لحظات إحدى أميراته التي غادر الزمن ولم تبرح أبهته هيئتها، تسير في جلال ورقة معًا تقصد غرفة الصالون، تفتش بعين قلقة مترقبة وأخيرًا تلمح الضيف فترحب بحرارة

بالغة بنهى وتقبلها في حنو وتحفظ معًا وتربت في حنو وود على كتف نهى التي تنفجر باكية في حضن عمتها التي تستغرب وتتوقع أمرًا فتجلس بجوارها وترفع رأسها بطرف كفها برقة وحزم وتقول:

- ما بك يا نهى؟

- جمال!

فتتأملها بصمت مطبق ونظرات متسائلة، نهى تمتلئ عينها بالأسى والحيرة والانكسار، وعلى الفور رأت أن توضح لها سبب مجيئها، تحاول التكلم فتبكي بنحيب ومرارة وغصة، هنا تتنبأ العمة أهمية ما دفع بنهى أن تلجأ إليها، ثم قالت أخيرًا:

لم يكتفِ بي وبحبي له طوال تلك السنوات عاش زوجًا وقلبه خاوٍ فذهب ليفتش عنه بعيدًا إلى أن وجده!

وتنساب الدموع من عيني نهى وقد هدأ نحيبها واستقرت الغصة في نبرات صوتها ونظرات عيونها مما حدا بالعمة أن تتوصل إلى حكم الألم الذي تشعر به فاستجمعت نفسها قائلة متوقعة:

- صديقتك؟

- لا.

- من إذن، ابنة خالتك أم ابنة عمتك؟

هما أول من يرشحها الزوج الخائن ليمرر خسته!

- تعمل بمركز الترجمة الفرنسي في الإسكندرية.

وقد التقطت طرف الخيط وفهمت ما تشير إليه ابنة أخيها فتفكر في تلميحها هذا، مردفة:

- تأكدتِ؟

- نعم.

- واجهته؟

- لا، ولكنه يعلم أنني أعرف.

هنا تثور العمة، ثم تهدأ قائلة حيث كان الموضوع قد قلب عليها أوجاعها هي الأخرى:

- سيعود، كلهم يعودون، مجروحون ولكن يعودون، هل قلبه المجروح يفرق معك، يعودون بندبة في القلب هل الأمر سيفرق معك؟

طالما سيعود فلا يعيننا في شيء أمر الندبة.

نهى تنصت إلى حديث عمتها ينطلق منها في تؤدة وعن ثقة ويقين تام تتكلم كمن يستجر من ذاكرته، ينطلق الكلام ثقيلًا ولكنه مرتب بمرارة لم ترد أن تسترجعها العمة مطلقًا.

ثم تقول:

- حبه لغيري يعذبني، ويحزنني أنه لم يحببني رغم حبي الكبير له.

- ليس بيديه!

كما ليس بيدك أن تكفي عن حبك له رغم جرحه لك ومعرفته أنك تتألمين!

فتجهش نهى في البكاء...

- قلتِ إنها تعمل في المركز الفرنسي؟
- نعم، هنا في الإسكندرية شارع النبي دانيال.
- وماذا تعمل فيه؟
- مترجمة.
- تعرفينها؟
- كانت معي في المدرسة في المرحلة الثانوية.
- يقيم معها علاقة؟
- لا، محظوظة!
- لو كان لديك نصف ثقتك بالرد شك كانت نارك طول العمر تخمد

ثم تشتعل من جديد، ولكن مع الوقت كل شيء يهدأ ولا يستعصي على النسيان أي شيء، مسألة وقت.

***

لتوقف أحلام عن الذهاب إلى التمارين والامتناع عن الرد على الهاتف وجدت داليا وصفاء أن عليهما أن يقتحما وحدتها ويزيحا حزنها فقصدتا بيتها وتوقفت لدى مدخل البيت، لتؤكد داليا على صفاء بألا تفاتح نهى في علاقتها بزوجها وما شابها مؤخرًا من توتر وحزن كبير لنهى إثر قصته مع الأخرى فأومأت صفاء بكل تأكيد والتأثر يملأ عينيها كما يملأ الغيظ

والحيرة عيني داليا، وتدخلان مباشرة باتجاه الباب وهما تعدان سيناريو الجلسة مع نهى حرصًا على شعورها وحالتها.

***

في الموعد المرتقب لإقامة المباراة بين فريقي كرة القدم بالمدرسة يتقدم الفريقان بمصافحة الفريق ويظهر كريم باعتباره لاعبًا بارزًا في فريقه، وفي الفريق الآخر شادي صديق كريم كما يظهر بين المشجعين هشام صديق كريم هو الآخر، ويلتهب حماس المشجعين بقوة كل لفريقه ويظهر من خلف الطلبة في جانب بعض المدرسين المحبين لكرة القدم كما يوجد على الجانب لجنة التحكيم التي تتكون من عدد من المدرسين الذين يقدرون كرة القدم ولدى بعضهم خلفية جيدة عن اللعبة وتبدأ المباراة حامية يتبارى الفريقان في إظهار موهبتهم وسط كلمات التشجيع من مشجعي الفريقين وكلما سدد فريق رمية أو هدفًا يهلل بقوة مشجعو الفريق وتلتهب الأجواء والترقب على الوجوه، أي الفريقين سيفوز وسط ترقب وحبس أنفاس وفجأة يفوز فريق كريم فيهلل مشجعو فريقه، ثم تنتهي المباراة بفوز فريق كريم ولكن جاءت النتيجة مخيبة لآمال الفريق الثاني فصار وجه شادي محتقنًا بالغضب والضيق والخجل من مشجعي فريقه ويكاد لا يلتفت ناحيتهم وسط كلمات السخط والتوبيخ من بعض المشجعين مما زاد من غضبه وضيقه، فتنتشر حالة فوضى وهمس بين المشجعين وتظهر النظرات التي تحمل معاني متضادة بين غضب وظفر ولمز وسخط وتوعد، وفي أثناء ذلك يتقدم أحد مشجعي

فريق شادي ويهمس في أذنه بحديث خاطف، ينظر على إثره باتجاه كريم الذي يحمله فريقه مهللين فرحين بالنصر على فريق شادي.

في الجانب الآخر يظهر هشام وهو يتشاجر بزجر مع عدد من المشجعين من الفريقين معًا بلا جدوى ويلمح كريم تأثر شادي فينزل عن أكتاف حامليه ويصافحه بروح رياضية ولكن شادي يسر شيئًا في نفسه فيقول بنبرة ساخرة وضيق مكتوم وهو يصافح كريم ومشجعو الفريقين يهللون في تعقل ورضى:

- مبارك الفوز!

- مبارك علينا! والأهم لعبنا واستمتعنا بالمباراة، أتمنى أن نكرره هذا العام مرات ومرات.

فيبتسم شادي بود ثم يلمح أحدهم يشير إلى كريم بحنق ويهز رأسه لشادي في إشارة إلى شيء يلتقطه شادي بسرعة قائلًا بنبرة غامضة:

- أتمنى هذا ولو أنني لا أمتلك مثل روحك الرياضية!

ويميل إليه يهمهم بكلام فيحتقن وجه كريم على إثره بالغضب ويسدد اللكمات لشادي فيسقطه أرضًا وينهال عليه بالضرب ويحاول الموجودون التدخل خاصة هشام الذي يجذب كريم بقوة وهو يعمل على الحيلولة لتفجر الوضع ولكن يشتبك مشجعو الفريقين ويتبادلون السباب واللكمات وهم على وشك الاشتباك بعضهم مع بعض لولا تدخل المدرسين المكونين للجنة فيتدخلون ويوبخون الطلبة ويرفع أحدهم كريم مع هشام، ويرفع آخرون

شادي من على الأرض وبالفعل ينجحون في فض الاشتباك الحاصل، في حين يقع اشتباك بين مشجعي الفريقين فيعلو السباب المتبادل، وتظهر أجواء الفوضى وفجأة، صوت جرس من مكبر صوت المدرسة يتحدث فيه أحد العاملين في المدرسة وبنبرة إمارة في حزم وتنديد بأن يتوجه على الفور الطلبة من لاعبي الفريقين إلى غرفة مكتب مدير المدرسة ومع تكرار النداء يهدأ الصخب تدريجيًّا وبالفعل ينسحب اللاعبون مطأطئين رؤوسَهم وهم يسيرون باتجاه غرفة مكتب المدير ملبين النداء وحالة فوضى آخذة في الخمود بين صفوف مشجعي الفريقين وسط حيرة وحنق وسخط المدرسين المشكلين للجنة التحكيم الذين يظلون في أماكنهم يعقبون في ضيق على ما جرى بين الطلبة.

بعد أقل من نصف الساعة في غرفة مدير المدرسة يظهر الطلبة قادمين باتجاه غرفة تبديل الملابس، يظهر عدد من المدرسين من خلفهم ينظرون إليهم بسخط واستياء، واللاعبون من الطلاب يتوجهون مباشرة في صمت بزيِّ اللعب إلى غرفة تبديل الملابس ويظهر بينهم كريم وهشام ومن خلفهما من بين زملائه شادي يدخلون جميعًا إلى الغرفة المخصصة لتبديل الملابس ويأخذ كل مكانه ويلتقط ملابسه الخاصة ويستبدل ملابسه بالرياضية ولكن كريم الذي يشتعل غضبًا مذهول في قمة غضبه يكتم غضبه وعلى حين بغتة يجذب شادي من عنقه وهو يضيِّق عليه الخناق والطلبة من حوله من دخل الحمام وآخر منشغل بتبديل الملابس ينفرد كريم بشادي في جانب متوعدًا له:

- بسبب مباراة لعينة تسب أمي يا حقير يا كلب!

- ما قلته ليس بسبب المباراة.

فيلكمه كريم بقوة فيتوجع شادي بشدة قائلًا:

- ما قلته يعرفه الطلبة في المدرسة وآخرهم أنت فيصفعه بقوة ويجذب هشام بقوة وعنف ويسأله:

- ماذا يُقال عني؟

ثم بغصة قائلًا:

- وعن أمي؟

هشام يرتبك فيفهم كريم أن ثمة ما تلوكه الألسن في المدرسة فيجن:

- ماذا يقولون!

وهو ينظر إلى هشام، ثم ينضم آخر معلقًا في حذر وضيق:

- يقولون إن أمك تقيم علاقات مع زملائك وأنت تعلم!

يلكمه كريم هو الآخر فيسقط أرضًا، فيدخل كريم زاوية تغيير الملابس على عجالة،

يقوم الطالب الذي سقط أرضًا من مكانه وهو مطأطئ الرأس يشفق على كريم،

وهشام وشادي يتبادلان نظرات الغضب واللوم والسخط ويهرب شادي من نظرات اللوم التي يتأمله بها هشام.

يندفع كريم خارجًا من الغرفة بعد أن قلَّ غضبه فيوجه حديثه مباشرة إلى شادي:

- كيف لرجل محترم مثل أبيك أن ينجب خراء مثلك، إن فزت أنت لم أكن لأنال منك بأي طريقة، كيف سمحت لنفسك أن تتلفظ بما قلت، كل هذا لأني فزت بهدف أو اثنين!

أنا نادم أنني تحدثت يومًا مع شخص مثلك! كلكم أوغاد حقراء كيف تتقبلون أن تنفسوا عن غضبكم بتلك الطريقة الرخيصة ملعونة تلك اللعبة التي جمعتني بكم!

يتبادل الطلبة النظرات بحيرة ويبدو أن بعضهم يعلم بما قال شادي وبعضهم الآخر يتقبل ما يقوله كريم التماسًا منهم لغضبه العارم ومما تسبب فيه شادي الذي لا تبرح عينه النظر إلى الأرض مستشعرًا الذنب.

كريم:

- لن ألعب مباريات هنا ثانية لا لتجنب سماع القاذورات من أمثالكم ولكن لأنه لا يشرفني من أساسه.

في حين يؤيد هشام كل ما قاله كريم وهو ينظر باشمئزاز لكل من حوله، وينطلق خارجًا من الغرفة إلى الملعب مباشرة في خطوات ثابتة مع علو بعض الأصوات فيظهر لهم كريم على أرض الملعب كما يضيق المدرسون ذرعًا برؤيته ولكنه يزداد تقدمًا منهم وينظر إليهم في امتنان ويمد يده مصافحًا ومعتذرًا ثم يهز رأسه ممتنًا فيبادله المدرسون في حيرة التحية

وتقبل ما يجري على مضض وعلى الفور يلتفت كريم إلى المشجعين من الفريقين قائلًا بنبرة واثقة:

- أنا آسف لكم جميعًا عما حدث، يبدو أننا صغار لنتقبل الهزيمة في مباراة كرة قدم، لم يتقبل الفريق الآخر أن يحرز فريقي هدفين فانهالوا بالسباب والشتائم البذيئة على أمي فهل هذا يرضيكم؟

يصيح مشجعو الفريقين بالرفض والمساندة والشفقة والتضامن مع كريم، فيربت على صدره في امتنان مردفًا:

أنا أحب كرة القدم وألعبها من صغري كنت أَغْلِبُ وأُغْلَبُ وكان هذا يحفزني للتدريب أكثر لأكون الغالب المرة القادمة، ثم يهلل مشجعًا الفريقين تأييدًا للسلوك الكروي، ثم يردف:

- ولكن لم أستهدف الفريق الآخر بالإساءة والتطاول!

يهمهم مشجعو الفريقين بتأثر وشجب، فيكمل:

- للأسف ما حدث اليوم كان صعبًا على نفسي هل ذنبي أني أحب الكرة، وشاركت في المباراة؟

يصيح مشجعو الفريقين مهللين وبين مشجع ومؤيد له وبين متضامن معه، ويتفرق مشجعو الفريقين ليتسابق كل منهم وهم يتوجهون صوب كريم فيحمله عدد منهم ويصيحون:

- كريم، كريم، كريم!

الكرة نزاهة، وشرف، وروح حلوة!

شادي مطأطئ الرأس وهشام يتأمل كريم بفخر وزهو ويظهر على مقربة من الفناء الحارس وهو يراقب عن كثب ما يجري وهو منزعج ومندهش مما يجري ويفكر فيما يحدث والبواب يهلل ويردد ما يقوله مشجعو الفريقين بحماس وهو ينظر إلى الحارس بزجر، ويرمق المدرسون الحشد مشدوهين مما جرى، وما يجري، ويبدو أنه الحادث الأول من نوعه حيث يتبادلون النظرات بذهول ونفاد صبر ويرمقون الطلبة بحيرة في أمرهم على ما يبدو.

***

تمضي أيام وكريم ينفرد بنفسه ويمتنع عن الذهاب إلى دروسه مكتفيًا بالحضور في المدرسة حتى أنه تهرب ولم يبلغ أحلام سبب الكدمات والخدوش في وجهه رغم إلحاحها المستمر كما وقد أثار دهشتها وقلقها رفضه أن يذهب إلى المدرسة معها كما هم معتادون، تخمن أحلام أن يكون سببًا متعلقًا به وبفورة السن وانعكاساته ولكن يساورها القلق وتتفجر بداخلها الخواطر فتفكر في أن تتوجه إلى مدرسته لعلها تتوصل إلى سبب الحالة التي يمر بها ابنها.

تتوجه إلى هناك وتقابل مدير المدرسة وبالسؤال عنه تعرف ما حدث يوم المباراة ولكنها لم تعلم أكثر من ذلك، ثم ببعض التحريات عرفت بأمر البواب الذي نهر الحارس وهدده أن يبلغ إدارة المدرسة عما قام بترويجه بين الطلبة عمدًا للإساءة إلى أحد طلبة المدرسة بإيعاز من إحدى السيدات التي

قصدت مبنى المدرسة منذ فترة قريبة وادعت على ما يبدو أنها تريد نقل ابنها إلى المدرسة ولكن تخشى على ابنها من معرفة أحد الطلبة، حيث قامت بإملاء اسمه ثلاثيًّا على الحارس قائلة إن الطالب المذكور أمه سيئة السمعة وتقيم علاقات مشبوهة بزملاء ابنها في المدرسة وهي تخشى على ابنها مما يحدث فقام الحارس بترويج ما سمعه منها على أنه حقيقة، ولأن البواب من أهل المنطقة ويعلم أهالي غالبية الطلبة ويعلم أخلاق الطلبة في المدرسة وخاصة الطالب المذكور فقام بنهره وتهديده بإبلاغ إدارة المدرسة التي أقل ما ستقوم به هو فصله وطلب منه أن يقوم بترويج سبب آخر لما أشيع بأن الطلبة لا تحتمل التنافس فطلبوا من بعض الفاشلين في المدرسة ترويج الأكاذيب عن زملائهم كيدًا لهم على تفوقهم وبالفعل سرى هذا بين الطلبة وهذا بفضل نظرة البواب في البشر وهي التي يرجع إليها حكمه على كل من يتعامل معه في محيط المدرسة تحديدًا وحياته عامة، حقًّا نيتك السليمة لا تنجيك من استهداف الأشرار.

لم تتخيل أحلام أن طلبة في عمر الزهور يستهدفون بعضهم بالكيد إلى هذا الحد ولكن من تلك المرأة التي كانت تنوي نقل ابنها وخشيت عليه من أم كريم وسمعتها، ولم اختارت ابني لتروج عنا هذه الأكاذيب، وهذا الحارس البغيض كيف يقوم بإيذاء ابني على هذا النحو وبتلك الكيفية! لم نفلت رغم تجنبنا البشر، يجب أن نتقن التعامل معهم وخاصة في المواقف الصعبة فضلًا عن الابتعاد والعزلة فأذى بعضهم كالهواء يحاوطنا في كل

مكان وتحت أي ظروف، تغرق أحلام في أفكارها متألمة حائرة تغفو من ثقل ما تحمل نفسها وصدرها في مكانها في حين كريم خارج من غرفته يرى أمه غافية على الكنبة فيقترب منها ويوقظها وهو يتأمل وجهها المحتقن بالهم والضيق وكأن الحزن والأسى قد تسربا إلى أعتاب حياتها، تستفيق أحلام من غفوتها وترى كريم أمامها فتنهض من مكانها وتعانقه بحنو وهي تجهش في البكاء فيوقن أنها عرفت فيربت على كتفها بشفقة وتتركه وتهرول إلى غرفتها وتغلق الباب عليها، يتوقف في الصالة مكانه والدموع تترقرق في عينيه في جو مطبق هواؤه ثقيل فيزفر بضيق وتأثر.

تتنفس صفاء الصعداء في استراحة من تلاحق التمرين تتوقف وهي تراجع داليا في حديثها، وتأتي نهى من بعيد ملاحظة حديث الفتاتين...

صفاء:

- عليها أن تستريح وتهدأ قبل أن تخرب بيتها، زوجها لا يخونها ولا شيء.

داليا باستنكار يكاد يجن جنونها:

- ما دام يعرف عليها أخرى فهو يخونها.

صفاء بعتاب:

- هو يحبها فقط لم يقم معها علاقة.

- ولو، خائن!

تقترب نهى فتغير الفتاتان الحديث على وجه السرعة فتطمئن نهى وتواصل بعد فترة الراحة باقي التمارين وتنضم إليها صديقاتها.

***

طرقة خفيفة على باب غرفة مكتب أحلام فتفتح الباب بنفسها حيث تظهر بوجه شاحب وعيون ذابلة فتجد عزيز فيدخل مباشرة إلى غرفة المكتب قلقًا ويحدثها في حرص وقلق:

- مساء الخير أحلام!
- مساء النور!

وتود لو ينهي حديثه على وجه السرعة ويذهب، غير أنه يتجاهل عدم رغبتها الحديث معه ويدخل في الموضوع مباشرة:

- هل ليليان عادت لتضايقك؟

فترد بضيق واستياء فحالتها لا تسمح بمحاولاته البائسة في استمالتها هكذا تفسر مجيئه وحديثه فتصده بفتور وضيق:

- "مسيو عزيز" رجاء اهتم بشؤونك فقط!
- أخبريني، فلن أسمح لها أن تتسبب لك في مكروه!

فتزفر أحلام بضيق وتهب واقفة لتنهي الحديث؛ فيخرج عزيز على الفور غير آبه بمعاملتها له، ثم تلقي بنفسها على كرسيها متململة ترمقه بعيون متعبة وروح مرهقة وتحاول العودة إلى مزاولة العمل.

عزيز يسير في الردهة ثائرًا حائرًا لا يدري كيف يتصرف وتتوالى على ذهنه الأفكار في حين تأتي رولا في أول الردهة عن اليمين من ناحية مكتب مدير المركز متجهة مباشرة في اتجاه المكاتب وتسير بخُطا سريعة رأسا إلى مكتب أحلام وتطرق الباب ومن الداخل وبتململ تسمع صوت أحلام تأذن بالدخول فتفتح الباب وتدخل مسرعة لتجد أحلام من نظراتها على ما يبدو قد ظنتها شخصًا آخر، ولكن رولا قد فهمت مَنْ المتوقع؛ فتخفض أحلام عينها بتوتر وتململ فتتفحصها رولا بحيرة قائلة:

- أحلام، "مسيو ميتران" بعثني إليك وقد سألني عن شيء آثار استغرابي!

- ماذا حدث؟

- هل طلبتِ نقلك من هنا؟

تهب أحلام واقفة في ذعر:

- لم يحدث هذا!

أنا لم أفكر منذ التحقت بالمركز إلا في البقاء فيه!

- اذهبي لـ"ميتران" إنه يريد أن يتحدث معك.

أحلام تندفع خارجة من الغرفة وهي مشدوهة يملأ عينها الغضب والحيرة والذهول،

ورولا تلحق بها متفاجئة مما يحدث.

لا تدري كيف وصلت إلى غرفة مكتب مدير المركز الثقافي الفرنسي بالإسكندرية، تدخل المكتب كأنها تدخله لأول مرة تداخلها الرهبة تجد نفسها وجهًا لوجه أمام "مسيو ميتران" لا تنبس ببنت شفة مشدوهة بينما هو تولى الحديث:

- تفضلي استريحي يا أستاذة أحلام.

تجلس أحلام ونظرها معلق على وجه "ميتران" تنصت إليه فقط وتبتلع ريقها بصعوبة، فيردف:

- يسعدني أمر، ويؤسفني آخر!

أما الذي يسعدني فلأن المركز مؤسسة تخضع لقوانين وقواعد لا تفرق بين العاملين بها على أسس غير النزاهة والكفاءة والالتزام بظروف ومتطلبات العمل بها، وأما الذي يؤسفني فهو أنه قد اتصل بي أحد المسؤولين ليطلب في نبرة صوت مبهمة أن أخبره بأكفأ العاملين بقسم الترجمة في المركز لأفصله أو ليتم نقله إلى مركز آخر!

تنصت أحلام لما يقول في هدوء وعينها مليئة بالحيرة والدهشة معًا لا تقوى على الكلام.

***

مضت ساعات وأحلام ممددة على سريرها بملابسها التي خرجت بها، وكريم جالس في غرفته يحاول الوصول لسبب غلق أمه الباب على نفسها كل تلك الساعات فيخرج من الغرفة ويسير صوب غرفتها لعلها قد

استيقظت فيتكلم معها لكنه يجد المكان ساكنًا لا حركة تصدر من داخل الغرفة كما أن الإضاءة مطفأة بها فيمضي قاصدًا المطبخ وأن يصدر صوتًا وهو يجذب كوبًا لعل الجلبة تقلق أحلام فتستيقظ لتضبطه في المطبخ وتنهاه عن تجهيز الطعام لنفسه فيدخلا في حديث شيق بين جدران المطبخ!

لم تُحْدِث الجلبة فائدة، فيتوقف ويرفع زجاجة مياه صغيرة ويسير بخُطا بطيئة وهو يمر من أمام غرفتها يستعلم حركة في الغرفة فلا يجد إلا الصمت التام فيتسلل إلى غرفته في أسى وحيرة يبتلعها بالماء!

***

على صدى موسيقا فرنسية شجية تتردد في المكان يجلس عزيز مع رولا يتجاذبان أطراف الحديث ويتناولان القهوة، وتظهر من بعيد ليليان التي تتقدم من خلفهما وهما مستغرقان في الحديث الودي، تتقدم ليليان وهي ترمق عزيز بانتشاء وغبطة ثم ترسم ابتسامة محايدة وتتقدم منهما بهدوء وثقة...

عزيز:

- ...لا أدري رولا، لم لا تتقبل الحديث معي وتفسره على نحو سيئ!

لقد أقلقني ما تردد بالفعل وتوجهت إليها لأستوضح من شيء دون أن أفصح عما عرفته فوجدتها تصدني وترفض مجرد الحديث.

رولا بحياد متجنبة أن تقول ما يضايقه خاصة فيما يخص أحلام:

- قد تكون متعبة أو لا تريد أن تثقل عليك.

- لم تكن تعلم بعد.

- بالفعل فهي علمت بعدما أبلغتها بطلب "مسيو ميتران" لها.

ثم تجلس ليليان وتقول مباشرة في استنكار واضح:

- يبدو أن أحلام تورطت في غرام رجل متزوج وقد حرضت زوجته إحدى قريباتها لتحدث زوجة مسؤول كبير لفصل أحلام من المركز أو نقلها.

تنزل الكلمات على مسامع عزيز كالسياط فيتجنب النظر ناحية ليليان وينظر أمامه وهو يكاد يبتلع ريقه بغصة وضيق ورولا تتجنب النظر لعزيز تفاديًا للحرج قائلة بغضب:

- مسكينة أحلام وما ذنبها في الأمر، غبيات هؤلاء الشرقيات، وهل فكرت أن تعاقب زوجها قبل أن تستهدف أحلام!

ليليان تنصت بضيق وتململ من نبرة رولا الحادة أو ربما مسها بعض الحديث، وعزيز في واد آخر، ورولا مسترسلة:

- وهل علمت أحلام بهذا؟

فتومئ ليليان برأسها متظاهرة بالأسى المفرط وهي ترمق عزيز بتشفٍّ، فتردف رولا:

- أحلام هذه كتومة بشكل مفرط، لقد أخبرتها عن مارك وعن حبنا ومعارضة أهله وهي من علمتني كيف أتصرف معهم بحكمة.

حكمة!

وتضحك رولا بسخرية تغلبها الشفقة في آن واحد على حال أحلام:

- الحكمة في بعض الأمور ضرورية وأحيانًا مهلكة، فلمَ لم تخبرني كنت أخبرتها كيف تتصرف على غير الحكمة التي أرجح من خلال معرفتي بطريقة تفكيرها أنها وراء إفساد أمورها!

ليليان:

- طريقة تفكيرنا تناسبنا باعتبارنا شرقيات.

- وتجني عليكن أيضًا.

تصمت ليليان وهي ترمق عزيز بلوم، فتكمل رولا مباشرة بعفوية وحزم:

- ليس كل ما هنا سيئ، فقط هنا تعاني النساء كثيرًا وتنال قليلًا، وتشقى وتئن باستمرار، للدرجة التي تجعلني أتصور أنها لا تنال أي قدر من الراحة إلا عندما تموت.

وكأن رولا تتحدث إلى نفسها فعزيز غارق في غيمة من الهموم والصدمة، وليليان تتجنب النظر ناحيته وتحتسي قهوتها في صمت شاردة هي الأخرى.

فترى رولا أن تنضم إليهما وتحتسي هي الأخرى قهوتها في صمت، وهي تتأمل عيناه في تأثر واستجداء.

***

أحلام الغارقة في الهم والفكر:

- هل حبي لك خطيئة، أنا امرأة عاطفية كان قلبي ظمآن للحب، وما إن لمحتك قاومت حبك كثيرًا، لم أفرح في بداية الأمر به لم أسعَ لمعرفتك، كنت طبيبي مثل عشرات الحالات التي تقصد عيادتك، كنت أحتاج الحبَّ ففرحت بأن انفتح قلبي للحب مجددًا، لم أكن أتخيل أن يبدد هذا الحب فرحتي واستقرار أسرتي حتى طار إلى مدرسة ابني وإلى محل عملي، هل اهتزت الأرض من تحتي لأنني أحببتك، هل أدخل حبنا ما يسوء إلى حياتك!

جمال يتأملها مستغربًا ويقاطعها رغم استرسالها الممتزج بالأسى والدموع:

- أولًا، ما بك يا أحلام؟

أصبحت ترفضين مقابلتي وتتهربين مني، هل أغضبتك في شيء!

ولم أنت على غير عادتك تبدين مرهقة ذابلة يا أحلام، هل كريم بخير؟

بصوت متهدج يغشاه الأسى:

- كريم!

- نعم، كريم، كيف هو؟

فتدمع عيناها قائلة:

- سؤالك عن ابني كالعادة منك يسعدني يا جمال!

وقد قشعت نبرة صوتها الحانية وانسحب حزنها ولانت عاطفتها فتنساب الدموع من عينيها وتلمع وتحمر وجنتاها، فتتردد فيقاطعها جمال قلقًا عليها:

- ما بك يا حبيبتي؟

أنادمة على حبنا، أقصد حبك لي!

فتهز رأسها نفيًا؛ فيطمئن متسائلًا:

- ماذا إذن!

وأمام صمتها وشعورها بالأسى والشفقة على نفسها يتكلم هو:

- حبك هو أهم ما جدَّ في حياتي، أنا بك يا أحلام أشعر أني أتنفس وأني أحيا، أعد نفسي رجلًا محظوظًا بك، غدت حياتي أجمل وأفضل، كل شيء بحبنا أصبح ذا قيمة ومعنى ولون!

- لم أطمح لغير هذا، حب يجعل قلبي يستعيد فرحته وأمله في الدنيا، أنا مثلك حولني الحب إلى فراشة مرحة تملأ روحي الفرحة ونفسي البهجة والسرور والسكينة والأمان!

الأمان يا جمال، قد كنتَ تعني لي الكثير من المعاني وأنا في أمس الحاجة إليها!

- كنتُ...

وتنسكب الدموع من عينيها والأسى يتعمق في نظراتها:

- قل لي إذن، لم حدث كل هذا!

بقلق:

- وماذا حدث يا أحلام، أخبريني من فضلك!

تنظر أحلام بعين غارقة في الأسى والحيرة والضياع وقد اختلطت المشاعر بداخلها بين غضب وصدمة وشفقة على النفس!

***

في أجواء احتفالية والزينة والبالونات الملونة تعلو وتهبط في أرجاء المكان تقف منة ومي حول نهى أمام التورتة التي بها ثماني شمعات تحتفل بعيد ميلادهما، وتشاركها أمها وصديقتها داليا وأبناؤها الصغار يدندنون على أنغام أغنية للأطفال ويتبادلون الابتسامات والفرح يفيض في عيون الحاضرين.

منى ومي ومن حولهما الأطفال أبناء صديقات نهى وأمامهم التورتة، وتشاركهم الجدة وداليا وصفاء وهم يدندنون مع أغنية عيد الميلاد التي تصدح نغماتها في الأركان، ونهى تحضر باقي الحلوى من الداخل...

وفجأة، يرن جرس الباب بإلحاح؛ فتتجه أنظار الجميع ناحية الباب تعلو وجوه أصحابها الابتسامة، ونهى قادمة من ناحية المطبخ تضع طبق الحلو على المائدة بتأنٍ وتتجه إلى الباب لتفتح والجميع يغنون مع الأغنية!

نهى تقترب من باب الشقة، وجرس الباب ما زال يصدح بالرنين...

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.